إقرأ

عباس محمود العقاد

جميل بثينة

دار المعارف بمصر

٥

جميل بثينة

عباس محمود العقاد

جميل بثينة

اقرأ ١٣
دار المعارف بمصر

اقرأ ١٣ — الطبعة الثالثة



تمهيد

كتبت هذه الرسالة عن جميل بن معمر الذى شهر بثينة بحبه حتى اشتهر بها فسمى جميل بثينة ، وكان فى زمانه إمام العشاق العذريين غير مدافع ، وأستاذ المدرسة الغزلية التى تجرى على طريقته فى النسيب والتشبيب ، وهى مدرسة الشعراء المحبين الموكلين بمحبوبة واحدة ، ينظمون الشعر فيها ولا ينظمونه فى غيرها ، وقلما يطرقون باباً من النظم غير باب النسيب .

وقد اعتمدنا فى أخباره على مصادر كثيرة ، لم نر بينها ما هو أولى بالرجوع إليه والاعتماد عليه من كتاب « الأغانى » لأبى الفرج الأصفهانى ، لأنه أقرب إلى التمحيص والتثبت فيما يرويه ، فضلا عما تعودناه منه فى أمثال هذه السير من الجمع والاستيفاء

والذى يبدو لنا من مجمل أخباره التى راجعناها أنه « شخص طبيعى » تصدر منه الأقوال والأعمال التى يعقل أن تصدر عن كل موصوف بمثل صفاته ، وإن وقع فيها الخلط والاضطراب كما يقع فى أخبار جميع الأحياء الذين نراهم رأى العين

فهو سند صالح لمعظم أقواله وأعماله ، كما أن أقواله وأعماله مادة صالحة « لتكوين » شخص على مثاله ، والترجمة لحياة كحياته .

فإذا قرأنا شعره وحوادث غرامه فهمناه ، وإذا فهمناه سهل علينا أن نعود إلى ما قاله وما قيل فيه فنعرف منه الزيف والصحيح ، ولو على سبيل الترجيح .

وفحوى ذلك كله أن ما قاله وما قيل فيه لا ينجلي بعد الغربلة والمضاهاة عن شخص مستحيل ، ولا عن أجزاء مفرقة لجملة شخوص كأنها الأشلاء التي لا تكمل لها صورة ، وقد تتعدد فيها الجوارح والأعضاء فوق ما يراد للبنية الواحدة .

ونعتقد أن شعراء العشق جميعاً في عصر جميل يصدق عليهم من هذه السمات ما يصدق عليه ، مع اختلاف يسير في الوضوح والتحقيق .

فهم جميعاً ثمرة عهد لابد أن يثمرهم . وإنما وجه الغرابة أن تتهيأ أسباب ظهورهم ولا يظهروا ، وليس وجه الغرابة أنهم ظهروا في تلك البيئة وفي ذلك الزمان .

وقد تهيأت تلك الأسباب كل التهيؤ كما لخصناها في بعض فصول هذا الكتاب ، فهم إذن شخوص طبيعيون تحيط بهم أحوالهم الطبيعية ، ومن هذه الأحوال الطبيعية أن يتعرضوا

للخلط والتناقض أو للروايات المتشابهات عن هذا وذاك .

فمن الطبيعي أن تختلط أخبار بعضهم ببعض ؛ لأنهم جميعاً عشاق ، وجميعاً من أهل الحجاز وما حوله ، وجميعاً من أبناء عصر واحد ، ينظمون بلغة عصر واحد وينسجون على طريقة واحدة . فإذا تشابهت أقوالهم وأخبارهم حتى جاز الاختلاط بينها فلا غرابة فى ذلك ، بل لعل الغريب ألا يقع الاختلاط مع هذا التشابه الكثير .

ومن الطبيعي أن تحتمل أخبارهم المبالغة إلى أقصاها . لأن المبالغة مقرونة بشهرة كل « بطل » فى باب من الأبواب ، فلا يشتهر أحد بالشجاعة أو بالكرم أو بالمجون إلا أضاف إليه الناس كل ما يتصل بهذه الشهرة وتنافسوا فى التزيد عليها والتهويل فيها ، وما من بطل خرافى أضيف إليه من المبالغات فوق ما أضيف لعلى بن أبى طالب حتى حارب الجن ، ولحاتم الطائى حتى جاوز السفه ، ولأبى نواس حتى استنفد موبقات الناس وأفرغ جعبة الظرفاء أصحاب الملح والنوادر ، وكلهم مع هذا شخوص طبيعيون لا تمنعنا المبالغة أن نردهم إلى قرار .

ومن الطبيعي أن تتناقض أخبار أولئك الشعراء والعشاق ، لأنهم شخوص حقيقيون يتعدد الرواة عنهم والمتحدثون بأخبارهم ، وليسوا من اختراع مخترع واحد يصوغهم كلهم فى قالب واحد ،

ويعرضهم كلهم فى مخيلة واحدة

فهم شخوص طبيعيون

ولن يكونوا طبيعيين حتى يتعرضوا لمثل ما تعرضوا له من التناقض والتشابه والمبالغة والإحالة

وأقربهم إلى الطبيعة فيما نرى جميلٌ صاحبنا فى هذا الكتاب. فهو لا يتفق له وجود — حيث وُجد — إلا على الصورة التى تجملها لنا قصائده وأنباء رواته ، وعلاقته بمعشوقته بثينة مستقيمة على النهج الذى ينبغى أن تستقيم عليه ، وإخلاصه لها أو إخلاصها له هو الإخلاص الذى ينطوى عليه كل عاشقين مثلهما ، لا هو فى السماء ولا هو فى الخيال ولا هو فوق طاقة الناس . ولكنه الإنسان حيث كان واحد فى كل مكان وزمان

وقد عنانا فى هذا الكتاب أن نوفق بين البواعث النفسية والعوامل الطبيعية فى سيرة هذين العاشقين ، وأن نفهم الأدب على مصباح من علم النفس ومن حقائق الطبيعة ، فلا نرجع به إلى لفظ تلوكه الأفواه ، بل نرجع به إلى وشائج طبع تمتزج بالأبدان والأذهان

عصر جميل

عاش جميل فى القرن الأول للهجرة .

وهو قرن حافل بأحداث السياسة : تحولت فيه الدولة الإسلامية من نظام إلى نظام ، ومن قطر إلى قطر ، ومن سيرة إلى سيرة . فخرجت من الخلافة إلى الملك الموروث ، ومن الحجاز إلى الشام ، ومن بساطة الحياة الدينية إلى بذخ المعيشة الحضرية التى جمعت بين بقايا حضارة الفرس وبقايا حضارة الروم .

وليس بنا فى هذه العجالة أن نسجل حوادث العصر كله أو نتعقبها من بدايتها إلى نهايتها تعقب تفصيل أو تعقب إجمال ، فكل أولئك لا يعنينا فيما نحن فيه إلا من طرف واحد : وهو الطرف الذى يتصل بحياة شاعرنا جميل ، ومن شابهه من الشعراء فى بيئته وزمانه .

وأوجز ما يقال فى تلك البيئة أنها البيئة التى تخرج أمثال جميل من شعراء البادية المحيطين بالحضارة الحجازية ، والمتصلين بحواضر الإسلام فى مصر والشام .

فالعصر الذى عاش فيه جميل بالحجاز كان عصر

استئناف للحياة الحجازية قبل ظهور الدعوة الإسلامية ، ولكن على نحو جديد .

وكان المعول الأكبر فى الحجاز على حياة المدن التى يقصدها الناس للتجارة وقضاء المناسك السنوية . وقد طال عهد تلك المدن بالتجارة واستقبال القصاد ، فاجتمع فيها الثراء بأيدى السراة وأصحاب القوافل والأموال الغادية الرائحة بين رحلة الصيف ورحلة الشتاء ، واجتمع مع الثراء ما يتبعه أبداً من الترف واللهو والإباحة وإيثار الدعة والرخاء .

ثم ظهرت الدعوة الإسلامية فشغلت الناس عن ذلك كله بالجهاد بين المسلمين والمشركين ، ثم علت كلمة الدين فى عهد النبى عليه السلام وفى عهد خلفائه الراشدين ، فعز على أصحاب اللهو والترف أن يتمادوا فيما كانوا فيه ، فاهتدى منهم من اهتدى واستتر منهم من بقى على ضلاله ، ووجد أكثرهم منصرفاً له عن معيشته الأولى فى هذه المعيشة الدينية الجديدة ، وفى شواغل السياسة والحرب التى كانت تزدحم بها عواصم الدولة الإسلامية ، وهى يومئذ عواصم الحجاز .

ثم ارتفعت رقابة الخلفاء الراشدين عن تلك العواصم ، وتيسر للمترفين ما كان متعسراً قبل ذلك من ضروب اللهو والمتعة ، مع اختلاف محسوس تقضى به رعاية الدين .

وانتقلت الدولة من عواصم الحجاز إلى عواصم الشام فتفرغ أولئك المترفون لحياة الفراغ التى لا رقابة عليها، وربما تجاوز الأمر قلة الرقابة إلى التشجيع على حياة المجون والبطالة ، لأن أصحاب الدولة الجديدة كانوا يخشون من أبناء الرؤساء فى الحجاز أن ينصرفوا عن حياة الفراغ إلى حياة الجد والطموح ، فليس فى جدهم وطموحهم أمان للدولة الجديدة، وإنما الأمان لها كل الأمان أن يلعبوا ويرتعوا ويجتمعوا على اللغو والفضول وإيثار الدعة والرخاء

فاستأنفت الحواضر الحجازية تاريخاً قديماً طويلا فى اللهو والمجون ، وعادة « الظرف » المأثور فى عرف أولى النعمة أن يصبحوا ويمسوا بين المنادمة والمسامرة ، وأحبها وأشيعها حديث الغزل ووشايات الغرام .

هذه الحياة عدوى لا يسلم منها من عاش فيها ولو كان مطبوعاً على الجد والطموح ، لأنها كالجو الذى يتنفس فيه كل متنفس يشاء أو لا يشاء ، وغاية ما فيها من فروق أن البنية السليمة تقوى على أنفاس ذلك الجو من حيث تضعف البنية السقيمة . أما الهواء الذى يتنفسونه جميعاً فلا اختلاف فيه .

فمن أشجع الرجال الذين نشأوا فى تلك البيئة ولا ريب كان مصعب بن الزبير سليل الشجعان ووريثهم فى شمائل النبل والشمم والمضاء .

وكان له من الجد ما يشغله عن معيشة أهل البيئة التى نشأ فيها ، وينجيه من أوهاق[1] المتعة التى يتمرد عليها من طبع على غراره ، لو كانت هناك منجاة .

كان مع عمه عبد الله صاحبي ملك ينافس ملك بنى أمية ، وتولى البصرة والكوفة والعراق فضبط أمورها واستبقاها زمناً على الولاء له ولأهل بيته . ونهض عبد الملك بن مروان لقتاله بنفسه ، فأنفذ إليه الجيوش وراء الجيوش، فكان يبرز لها ويضربها ويفرق شملها . ثم أوفد إليه أخاه محمداً بن مروان يعرض عليه الأمان وولاية العراقين ما دام حيًّا وصلة من المال تبلغ ألفى درهم . فأبى مصعب إلا أن يقاتل حتى يغلب أو يموت دون التسليم . وخذله أصحابه طمعاً فى هدايا بنى أمية ، فما زال فى البقية الباقية من أنصاره يقاتل ويغامر حتى مات .

قيل إن عبد الملك بن مروان جلس بعدها بين أصحابه يسألهم : من أشجع الناس ؟ وهم يروغون فى الجواب، فقال لهم : بل أشجع الناس مصعب بن الزبير ، عرضت عليه الأمان والمال وولاية العراقين وعنده عائشة بنت طلحة أجمل النساء فأباها وآثر الموت على التسليم

---

(١) الوهق : حبل يوضع فى عنق الدابة له أنشوطة .

وتلك شهادة عدو لا ينفعه أن يكتمها ، لأنها أشهر من أن يحجبها الكتمان .

فالحق الذى يعرفه أعداء ذلك الرجل وأصدقاؤه أنه شجاع وأنه نبيل وأنه لا يقرن بالجد والطموح لذة من لذات الدنيا .

ومع هذا حسبنا أن نذكر له حكايتين اثنتين لنذكر كيف شاع الغزل وأحاديث الغزل ومواقف الغزل فى البيئة التى نشأ فيها وأحاطت به آدابها ودواعيها . فكل حديث عن الغزل والتهالك عليه مصدق إذا قوبل بهاتين الحكايتين من هذا الرجل الذى قل نظراؤه فى الجد والطموح .

إحداهما تتصل بشاعرنا جميل وتدور على بيتين قالهما فى صاحبته بثينه ، وهما :

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت
بالحجر يوم جلتها أم منظــور
ولا انسلابتهـــا خرســاً جبائرها
إلىّ من ساقط الأرواق مستور [١]

قيل إن مصعباً سمع البيتين فود لو يعرف كيف جلتها . فأنبأوه أن أم منظور التى أشار إليها الشاعر لا تزال بقيد

(١) الروق الفسطاط ، والجبائر الدمالج والأسورة ، والحجر اسم موضع .

الحياة . . . فكتب فى حملها إله ،كرمة . وحملت إليه ، ووصفت له تلك الجلوة فقالت : « ألبستها قلادة بلح ومخنقة بلح واسطتها تفاحة ، وضفرت شعرها وجعلت فى فرقها شيئاً من الخلوق — أى الطيب — ومر بنا جميل راكباً ناقته فجعل ينظر إليها بمؤخر عينه ويلتفت إليها حتى غاب عنها .

فقال لها مصعب : فإنى أقسم عليك إلا جلوتِ عائشة بنت طلحة مثل ما جلوت بثينة . ففعلت . ثم ركب مصعب ناقته وأقبل عليهما وجعل ينظر إلى عائشة بمؤخر عينه ويسير حتى غاب عنها ، ثم رجع !

أما الحكاية الأخرى فتدور على بيتين لتلميذ جميل — ونعنى به كثيّر بن عبد الرحمن — وهما :

وما زلت من ليلى لدن طرّ شاربى
إلى اليوم أخفى حبها وأداجن
وأحمل فى ليلى لقوم ضغينةً
وتحمل فى ليلى على الضغائن

وخلاصتهما أن مصعباً أبصر الشعبى — الرواية المحدث المشهور — وهو فى المسجد فأمره أن يتبعه ، وتقدمه وهو لاحق به ، حتى دخل منزلا ثم دخل إلى حجلة فى المنزل ووقف

الشعبي ينتظر ، فإذا جارية قد خرجت تقول له : إن الأمير يأمرك أن تجلس ، فجلس على وسادة وارتفع سجف الحجلة عن مصعب ابن الزبير ، ثم ارتفع السجف الآخر عن عائشة بنت طلحة

قال الشعبي : فلم أر زوجاً كان قط أجمل منهما ، ثم سألني مصعب : هل تعرف هذه ؟

قلت : نعم !

قال : ومن هي ؟

قلت : سيدة نساء المسلمين عائشة بنت طلحة .

قال : لا . ولكن هذه ليلى التي يقول فيها الشاعر :

وما زلت من ليلى لدن طر شاربي . . . وأنشد البيتين

ثم قال : إذا شئت فقم !

فلما كان العشي دخل الشعبي المسجد فإذا الأمير جالس على سريره فيه ، فاستدناه وسأله : هل رأيت مثل ذلك الإنسان قط ؟

فقال الشعبي : لا والله

قال الأمير : أفتدري لم أدخلناك ؟ . . لتتحدث بما رأيت

ثم التفت إلى عبد الله بن أبي فروة فأمره أن يعطيه عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوباً

قال الشعبى : فما انصرف أحد بمثل ما انصرفت به : بعشرة آلاف درهم ، وبمثل كارة القصار[١] ثياباً ، وبنظرة من عائشة بنت طلحة !

وكلام العالم المحدث هنا يتمم كلام الأمير المكافح المقدام : كلاهما شاهد على شأن الغزل فى ذلك الجيل ، حتى ليحسب العالم النظرة من الحسناء جائزة تقرن بعشرة آلاف درهم ، وحتى ليحكى الأمير مواقف الشعراء العشاق ويود أن يتحدث الناس بغرامه كما يتحدثون بغرام أولئك الشعراء .

ومتى اشتغل مصعب بالغزل هذا الاشتغال فقل ما شئت فيمن هو أفرغ للمنادمة والسمر وأحاديث الحسان والعشاق : إنهم خلقاء ألا يفرغوا لحظة من هذه الأحاديث ، ولا يزالوا بحاجة إلى الشعراء المنشدين يرددونها نظماً وغناء ، وهى عندهم أحب ما يستحب فيه الترديد

* * *

ذلك شأن الحواضر الحجازية

وليست البادية من حولها بأقل غزلا أو نظماً فى الغزل من الحواضر على اختلافها ، وإن تباينت الأساليب والآداب .

فلا يفوتنا أن البادية أفرغ للغزل وأرحب به مجالا من

---

(١) القصار : الذى يحور الثياب ، والكارة : ما يجمع فيه ثيابه .

الحاضرة ، على غير ما يتبادر إلى الذهن من الخطوة الأولى .

لأن البدوى والبدوية يستعيضان بالغزل عن عشرات من الملاهى الحضرية التى تدور عليه وتحوم حوله فى المدينة الكبيرة

وإن شئنا أن نعرف حاجة البدو إليه فلنذكر أنواع الفنون التى يستغرقها الحضريون فى صدد العلاقات بين الرجل والمرأة ولا يتاح نظيرها لأبناء البادية .

فالمسارح ، والأندية ، ودور الصور المتحركة ، والقصص المطبوعة ، والمراقص ، والمنازه التى يشترك فيها الرجال والنساء ، والأغانى ، والقصائد، وفروع كثيرة من التصوير والنحت والنقش والزينة — كلها معارض لتمثيل الغزل بأنواعه فى الحاضرة ، ولا يقابلها فى البادية إلا غزل الشاعر بالحسناء ، وما ينسج حوله من الأحاديث والدسائس والوشايات .

فالغزل وحده عند البدوى عوض عن هذه الأنواع المنوعة من أحاديث الرجل والمرأة فى المدينة العامرة ، وهذا مع كثرة الشواغل فى المدن وقلة الشواغل فى البوادى ، إلا ما كان من رعى أو سقى يقربان بين الرجل والمرأة ويلجئانهما إلى الغزل ولا يشغلانهما عنه ، فضلا عن معيشة الفطرة بين الأحياء التى لا تنقطع فيها صلات الذكور والإناث ، وليس الإنسان بدعاً بينها فى هذه الغريزة الفطرية .

فالبادية مهد الغزل قبل الحاضرة

وأيسر للمرء أن يتصور مدينة بغير شعر غزلى من أن يتصور بادية لا تنظم هذا الشعر فى كل حين

إلا أن البادية تتقيد ببعض القيود التى تستدعيها معيشة البدو ولا تستدعيها معيشة الحضريين .

لأن « المنعة » ضرورة من ضرورات الحياة بين أهل البادية ، ولا مناص لهم من الاشتهار بمناعة الحوزة بين الأعداء والنظراء ، وإلا طمع فيهم كل طامع واستباحهم كل مستبيح

وأول حوزة يحميها الرجل هى المرأة

فمن شرف « البدوى » أن تكون فتاته منيعة الحمى يتقاصر عنها لسان المتغزل كما يتقاصر عنها سيف المغير

وهذا هو القيد الذى يختلف به أهل البادية من أهل المدينة ولكنه قيد « سيىء الحظ » كجميع القيود التى تحيط بالغرائز وتحبس من ناحية ما يطلقه الطبع من ناحية أخرى

فمنذ القدم والقيود التى تفرضها العادات تتولى على الرجال والنساء بما يطاق وما لا يطاق ، ومنذ القدم والعرف مضطر إلى كثير من الإغضاء والتعامى عن تلك القيود . فهى موجودة ومفتاحها موجود ، ولا يزال القيد منها مقروناً بمفتاح

فإذا حجرت العادات من ناحية جاءت الفنون فتسمحت

من ناحية أخرى . وقد يغض الرجل المتدين بصره إذا مرت به حسناء يخشى فتنتها ، ولكنه يسمع بيتاً فى الغزل وهو غاض عينيه فلا يغلق دونه أذنيه

وقوانين البادية كجميع القوانين عرضة للتشديد والتخفيف وللرعاية والإهمال ، وللمحاباة والاحتيال

فقد يطول عهد الرخاء بالقبيلة فتهدأ فيها سورة القتال وتضعف المغالاة بالمناعة وما يتبعها من الغيرة والسطوة ، وقد يطول بها عهد الفاقة فيترخص أبناؤها وبناتها فى الأمور التى كانوا يتشددون فيها ويستكينون للسبة التى كانوا يتذمرون منها ، وقد تجاوز قبيلة قبيلة أقوى منها فتنزل على حكمها وتصبر على نزوات أهلها ، وقد تجاور الحاضرة فتجرى على سنة الحضريين فى الرفق والدماثة ، وتنزل شيئاً فشيئاً عن الجفوة والخشونة

وكل أولئك كان يحدث فى القبائل الحجازية على عهد جميل كان منها من استغنى عن القتال بعد أن تكفلت الدولة القائمة بصيانة الحقوق ومنع العدوان وجزاء المعتدين

وكان منها من طال فيهم الغنى كآل جميل ، ومنها من قل غناهم وجاوروا من هم أقوى منهم كآل بثينة ، وكانوا جميعاً يختلفون إلى الحواضر ويتشبهون بظرفائها وينكرون الخشونة على البادية وأهلها

فاتسع ميدان الغزل حاضراً وبادياً ، وظهر شعراء النسيب بنوعيه ، تغنياً بامرأة واحدة كما يغلب على شعراء البادية ، أو تغنياً بالحسان جميعاً كما يغلب على شعراء الحاضرة ، وتهيأ العصر لطائفة من شعراء المدرستين على رأسهم عمر بن أبي ربيعة يتغنى بحسان مكة وكل حسناء تقبل عليها ، وجميل بن معمر يتغنى بصاحبته بثينة ويعيش ويقضى نحبه على هواها

* * *

وما فتئت البادية العربية منذ القدم ميداناً فسيحاً للقوالين والرواة ، لأنهم سلاح من أسلحتها ومصلحة من مصالحها وثقافة أدبية تعدل عندها ثقافة الفنون والآداب والتواريخ فى أمم الحضارة

ولها معهم عرف ذو وجهين يجرى على الرياء والمداراة ، ولا سيما فى الغزل والفخر الحماسى . وهما قوام الشعر البدوى أو قوام كل شعر على الفطرة عنيت بحفظه الجماعات الأولى

فهى تحرم الغزل ببناتها ولكنها تحفظ للأعقاب منظومات شعرائها ، ولو كان عرفها فى هذا الباب ذا وجه واحد لما بقيت لنا قصيدة من قصائد العشاق ولا خبر من أخبارهم ، ولا قصة من قصص الشعراء الواصفين والحسان الموصوفات . ولكنهم كما رأيناهم قد عنوا بكل كلمة قالها شاعر فى حسناء وبكل مساجلة

بين عاشقين كأنها من وثائق التاريخ التى لا تنسى ، وما ذاك لأنهم يحبون الرياء أو يقصرون فى كراهة المحظورات ، فإنهم فى الواقع يبلغون من كراهتها أقصى ما فى وسعهم أن يبلغوه ، ولكنهم يفعلون ذلك لأن بواعث الحب فى الفطرة الإنسانية أقوى من أن يكبحها العرف أو يقضى فيها بقضاء واحد ، فلا بد من التجوز والإغضاء، أو لا بد هنا من عرف ذى وجهين .

أما الفخر الحماسى فموضع الرياء فيه مع شعرائهم أنهم يزدرون الشاعر ويفخرون بكلامه ، فربما ارتفعت قبيلة بكلام شاعر وهو بينهم فى مكان غير رفيع ، وربما كان تحريمهم زواج الفتاة بمن ينظم فيها الغزل ضرباً من ازدراء الشعراء كما كان ضرباً من حماية العرض ومنع الذمار . إلا أنهم فى الفخر كانوا أصرح منهم فى الغزل والنسيب . فربما اجتمعت القبائل علانية لسماع شاعرين يتراجزان ويتناجزان ، ويذكران الأعراق والأوطان ، ولم تأذن بإعلان الغزل على هذا النحو ولا بتناقله بينهم إلا من وراء أذن السامع وعين المشيح

وقد كان لجميل حظه الوافى من الحالين فى الغزل والفخر على السواء ، فسارت الركبان بأحاديث هواه و « تجمعت الأعاريب أرسالا » لسماع أراجيزه فى الفخر بذويه ، وخرج

من حلبة الفن بنصيبين متناقضين : فأما شخصه فقد جنى عليه شعره وحال بينه غزله وبين صاحبته على ما كان له بين قومه من مكانة وثراء ، وأما شعره فقد ظفر بكل عناية فى وسع قبيلة بادية ، ولا سيما الغزل الذى منعوه وأوشكوا من أجله أن يقتلوه

ومهما يكن من عرف العصر والقبيلة فقد كان عرفاً يسمح بغزله ويستدعيه ويستبقيه ، أو كان عرفاً صالحاً لتشجيع العاشقين ، وإن لم يكن صالحاً بينهما لوئام الزوجين

وتاريخ الآداب لا يجمع عقود الزواج ولا دعوات الزفاف ، ولكنه يجمع الشعر الذى قاله العاشق ولو جنى عليه ؛ وهكذا صنع بشعر جميل .

من هما ؟

جميل بن عبد الله بن معمر من بنى عذرة من قضاعة التى تسكن بالحجاز على طريق مصر والشام ، وأمه من « جذام » وهى تسكن فى الجانب الشمالى من هذه الطريق

ويلتقى نسبه ونسب صاحبته بثينة عند جدهما حن بن ربيعة ، ثم يختلفان على ما بينهما من تقارب النسب فى قوة العشيرة وصلاح الحال

فكان قومه أعز من قومها ، وكان أبوه « ذا مال وفضل وقدر فى أهله » يلقب بصباح ويحسب له فى بطون قضاعة كلها حساب كبير

ومن هيبته بين هذه البطون أن السلطان أهدر دم جميل إن وجده أهل بثينة فى دورهم ، فوجدوه عندهم مرات ولم يجترئوا على قتله . بل جعلوا يعذرون إليه وإلى أبيه مرة بعد مرة مخافة حرب لا قبل لهم بها بين العشيرتين . إلى أن أغلظ له أبوه القول من تتابع الشكوى إليه ، فكف عنها ما استطاع ثم رجع إلى سيرته معها بعد حين

ولعله استغنى بجاه أبيه وماله عن قصد الولاة والأمراء بالمديح

طلباً للجوائز والهبات ، حتى كان بعضهم يستدعيه إلى مدحه فيعدل عن ذاك إلى الفخر بقومه فى حضرته ، كما حدث بينه وبين الوليد بن عبد الملك حين سافر معه ثم رجز مكين العذرى بالوليد قائلا :

يا بكر هل تعلم من علاكا خليفـــة الله عـــلى ذراكا

فطمع الوليد أن يمدحه جميل ، ودعاه أن ينزل فيرجز ، فنزل فقال مفتخراً :

أنا جميل فى السنام من معد فى الذروة العلياء والركن الأشد
والبيت من سعد بن زيد والعدد ما يبتغى الأعداء منى ولقـــد
أضرى بالشتم لســـانى ومرد أقود من شئت وصعب لم أقد

فغضب الوليد وقال له : اركب لا حملك الله !

ومن جملة سيرته يظهر أنه كان كما قال صعباً لا يقاد ، أو كان على شيء من العناد والخيلاء . فكان يستعظم أن يجترئ عليه أحد بمناداته باسمه فى الطريق ، وحدث بعضهم أنه كان فى رهط من علية القوم عند شعب « سلع » بالمدينة . . . « إذ طلع علينا رجل طويل بين المنكبين ، طوال ، يقود راحلة عليها بزة حسنة . . . فصاح به عبد الرحمن بن أزهر : هيا

جميل ! هيا جميل ! . . . فالتفت مستكبراً يسأل : من هذا ؟ فلما عرف عبد الرحمن قال : قد علمت أنه لا يجترئ على إلا مثلك ! . . ثم جلس فأنشدهم حتى بدا له أن يقوم « فاقتاد راحلته مولياً »

والبزة الحسنة — على ما يظهر من جملة سيرته أيضاً — كانت من لوازمه التي اشتهر بها ولا سيما في المحافل ، حتى لقد كان يحسب متنكراً إذا مشى في البادية بزي الرعاة ، وقال بعض أصحابه : « قدمت من عند عبد الملك بن مروان وقد أجازني وكساني برداً كان أفضل جائزتي . فنزلت وادي القرى فوافقت الجمعة بها ، فاستخرجت بردي الذي من عند عبد الملك وقلت أصلي مع الناس . فلقيني جميل — وكان صديقاً لي — فسلم بعضنا على بعض وتساءلنا ثم افترقنا . فلما أمسيت إذا هو قد أتاني في رحلي فقال : البرد الذي رأيته عليك تعيرينه حتى أتجمل به ، فإن بيني وبين جوّاس الشاعر مراجزة . . . قلت : لا . بل هو لك كسوة ، وكسوته إياه . . . فلما أصبحنا جعل الأعاريب يأتون أرسالا حتى اجتمع منهم بشر كثير ، وحضرت وأصحابي ، فإذا بجميل قد جاء وعليه حلتان ما رأيت مثلهما على أحد قط . وإذا بردي الذي كسوته إياه قد جعله جلا لجمله . . »

فالرجل الذى يتخذ خلعة من الخليفة يزهى بها صاحبها جلالاً لجمله ويلبس خيراً منها ، رجل ولا شك مفرط الخيلاء معنى بحسن البزة وأناقة الكساء ، وقد ترجع هذه الخيلاء إلى النشأة العزيزة فى بيوت الرئاسة بالبادية ، فليس أقرب إلى الخيلاء من من أبناء هؤلاء الرؤساء . ولا سيما الذين رزقوا منها جمال السمت وروعة المظهر كما رزق جميل .

إلا أنها على هذا خليقة مطبوعة فيه لها مرجع غير التدليل والنشأة فى بيوت الرئاسة كما يؤخذ من بعض أوصافه . فقد ذكر صاحب له من أهل تيماء أنه كان معه يحدثه ويستمع له « إذ ثار وتربد وجهه ووثب نافراً مقشعر الشعر متغير اللون » حتى أنكره

فهذه الخليقة الجامحة التى لا يملكها صاحبها هى على التحقيق مرجع من مراجع تلك الخيلاء التى اشتهر بها جميل ، وقد توافق الطبع والنشأة والمظهر على الإملاء لصاحبنا فى خيلائه ، فغير عجيب مع هذا كله أن يتحامق ويحمق فلا يستتر حمقه حيث يريد وحيث لا يريد

وكيف يخفى حمق جميل وهو القائل :

لا لا أبوح بحب بثنة إنها   أخذت علىّ مواثقـــاً وعهودا

أيقول هذا البيت رجل رشيد كائناً ما كان قصده وذاهباً ما ذهب فى معناه ؟

إنه كان مضرب المثل بحق على حماقة « كاتم السر » الذى يقسم ألا يبوح به ، وهو فى قسمه على الكتمان قد باح !

* * *

فجملة المفهوم من أوصافه وأخباره أنه كان فتى من الفتيان الذين تكتب لهم — أو تكتب عليهم — حياة الغرام .

فكان وسيماً قسيماً طويل القامة عريض المنكبين مدللاً فى نشأته منظوراً إليه فى بزته وعزة قومه ، على ضعف فى الخلق والعقل يقعد به من عظائم الأمور ، ولا يكبح جماحه أن بدأت به غواية الهوى فتمادت به إلى منتهاها ، وكذلك رشحته النشأة والخلقة والخليقة ليكون جميل بثينة ، وجاء العصر والجوار فزكيا هذا الترشيح وأوسعا له عن مداه ، فهو فى دوره الذى تمثل لنا به فى عالم الشعر غير غريب .

* * *

أما صاحبته بثينة فقد وصفها جميل بعين المحب ووصفها غيره كما يراها كل من رآها ، فخلص لنا من جملة هذه الصفات أنها كانت « أدماء طوالة » كما قال عمر بن أبى ربيعة ، وأنها تفرع النساء طولا كما قال الرجل الذى حمل إليها نعى جميل .

ومن كلام عمر وجميل معاً يبدو لنا أنها كانت على سنة البدويات فى التأبى والدلال الذى يشوبه الجفاء . فلما تصدى لها عمر بن أبى ربيعة خرجت له فى مباذلها لا تحفله وقالت له : « والله يا عمر لا أكون من نسائك اللاتى يزعمن أن قد قتلهن الوجد بك ! » .

وقال جميل :

ولست على بذل الصفاء هويتها ولكن سبتنى بالدلال وبالبخل

فهى معشوقة بدوية صالحة « لدورها » المشهور مع جميل ، وقد زادنا جميل معرفة بتفصيلات ملامحها فقال : « إنها لطيفة طى الكشح ذات شوى خدل[1] » . . . وكرر هذا الوصف مرات فقال :

إلى رجح الأكفال هيف خصورها
عذاب الثنـــايا ريقهـــن طهور

ووصف ثغرها مرة أخرى فقال :

مفلجة الأنياب لو أن ريقها يداوى به الموتى لقاموا من القبر

---

(١) الكشح الخصر إلى وسط الظهر ، والشوى الأطراف والخدل الممتلىء .

وعمم الوصف فذكر جيدها وعينها فى بيت يقول فيه :

وأحسن خلق الله جيداً ومقلة
تُشَبَّهُ فى النسوان بالشادن الطفل

وفى بيت آخر يقول فيه :

لها مقلتا ريم وجيد جداية
وكشح كطى السابرية أهيف[1]

فإذا أعطينا « الوصف التقليدى » حقه من هذه الأبيات بقى لنا منها أن بثينة كانت حسناء بدوية لم يثقلها ترف الحاضرة ولم يعرقها شظف العيش ، فهى رشيقة معتدلة الخلق سامقة القوام مستحبة الملامح لمن يراها ، مفتوناً بها أو غير مفتون .

ومن بعض أحاديث كثير عن إشارات جميل لبثينة وفطنتها إلى معناها وردها عليها لساعتها ، يبدو لنا أنها كانت من الذكاء على نصيب يسعف الفتاة فى مواقف الغرام ، وهو نصيب غير نادر بين جميع الفتيات .

إلا أنها « شن وافق طبقه » فى علاقتها بجميل ، فكانت لا تخلو من حماقة وخفة يلاحظها من يحادثها ، وقيل إنها دخلت

---

(١) السابرية حرير ينسب إلى سابور والجداية ولد الظبى بلغ ستة أشهر .

على عبد الملك بن مروان « فرأى امرأة خلفاء — أى حمقاء — مولّية » ، فقال لها : ما الذى رأى فيك جميل ؟ قالت : الذى رأى فيك الناس حين استخلفوك .

ومثل هذه الحماقة لا تظهر فى الكهولة إلا كان لها أساس أصيل من بداءة العمر ، وبخاصة فى عهد الغواية والشباب .

* * *

وقد كان جميل يحاول أن يقتدى فى وصفها بابن أبى ربيعة فى وصفه لنسائه المترفات المنعمات فيقول عنها وعن أترابها :

إذا حميت شمس النهـــار اتقينها
بأكسية الديباج والخز ذى الخمل

ولكنها محاكاة لا تلبث أن تنكشف وينكشف باطلها كما ينكشف كل زيف وتلفيق . فبثينة هذه من بنات « بنى الأحبّ » الذين قال فيهم جميل حين غضب :

إن « أحبّ » سفلـــة أشرار   حثالة عـــودهم خـــوّار
أذل قوم حين يدعى الجار

والذين قال فيهم حين توعدوه مشيراً إلى عجزهم عن قتله لأنهم لا يقدرون على الحرب ولا على الدية :

إذا ما رأونى طالعــاً من ثنية
يقولون من هذا وقد عرفــونى
يقولون لى أهلا وسهلا ومرحبــاً
ولو ظفروا بى خاليــاً قتلونى
وكيف ولا توفى دمــاؤهم دمى
ولا مالهم ذو ندهــة فيــدونى

وليست هى غضبة هجاء يقال فيها بالحق وبالباطل ، لأنهم فى الواقع لم يجترئوا على حماية عرضهم من جميل حتى بعد أن أهدر السلطان دمه لهم إن رأوه فى بيوتهم ، وكان قصارى ما يصنعه زوجها أن يشكوه ويشكوها إلى أبيها وأخيها ، وقصارى ما يصنعه هذان أن يتعرضا لها فيشد عليهم جميل بالسيف فيهربا أو يشكواه إلى أبيه ويعذرا إليه ، وقد أربيا على حد الإعذار .

وكأنما كانت وسامة جميل مزية من مزايا كثيرة حببت إليها هواه ولم تكن هى المزية الأولى والأخيرة . كان ماله على ما يبدو من كلامه بعض هذه المزايا ، إذ لا محل لقوله إن لم يكن هذا كذلك :

ولو أرسلت يوماً بثينة تبتغى يمينى وقد عزت علىّ يمينى
لأعطيتها ما جاء يبغى رسولها وقلت لها بعد اليمين سلينى
سلينى مالى يا بثين فإنمــا يبيّن عند المــال كل ضنين

ولقد كان يرحل ويعود فيتهمها بصلة جديدة ثم لا تبالى هى أن تلمح إلى هذه الصلة فى بعض مناجاتها إياه .

وقد تزوجت برجل أعور ضعيف المنة لا يروقها ولا تهابه ولا تشعر بحماه . فلولا أن « بنى الأحبّ » كانوا فى ذلك الحين كما وصفهم لما كان زواجها بذلك الرجل خير زواج ترتضيه ، بعد أن حيل بينها وبين الزواج بجميل .

ونحن نعلم أنها تزوجت ولا نعلم أن جميلا قد تزوج إلى أن مات ، وقد تكون أوفى النساء له ثم تتزوج لأن أمرها إلى غيرها ، وهو لا يتزوج لأن أمره بين يديه ، ولكنها لم تكن من الوفاء بحيث يقدح الزواج وحده فى ذلك الوفاء ، ولعلها إحدى الكثيرات اللاتى يصدق فيهن وصف كثير تلميذ جميل :

ألا إنما ليلى عصـــا خيزرانة

إذا غمزوها بالأكف تلـــين

عشق جميل وبثينة

كل ما قرأناه عن جميل ، أو قرأناه من كلام جميل ، يدل على طبيعة العلاقة التي كانت بينهما ، وهي العلاقة التي تكون بين الرجل والمرأة وتتعطل فيها الإرادة بعض التعطيل أو كل التعطيل ، أو هي العلاقة التي نسميها العشق والغرام .

ومن الواجب أن نذكر هنا أن العلاقات الإنسانية كلها تستتبع شيئاً من تقييد الإرادة قل أو كثر . فالصديق لا يفارق صديقه بمحض اختياره ، والشريك لا يفارق شريكه وله مندوحة عن فراقه ، وكذلك الزميل أو الزوج أو صاحب الطريق . ولكن التفرقة هنا ضرورية بين تعطيل وتعطيل وبين تقييد وتقييد ، فالذي يتعاطى دواءً ينفعه أو ينتظر منه النفع يصعب عليه أن يتركه ويكف عن تعاطيه ، والذي تعود التدخين يصعب عليه كذلك أن يتركه ويكف عن تعاطيه ، ولكن الفرق بين تقييد الإرادة في الحالتين واضح كل الوضوح .

ففي الحالة الأولى يفكر الإنسان في العواقب وفي المنافع فلا يقدم على الامتناع .

وفي الحالة الثانية يفكر الإنسان أو لا يفكر فالنتيجة سواء

بل هو قد يفكر ويؤمن بالضرر ويمتلئ يقيناً بفائدة الامتناع ثم لا يمتنع ولا يفلح أحياناً لو حاول الامتناع .

وهذا هو الفرق بين القيود التى يفرضها « الهوى » والقيود التى يفرضها الرأى أو المصلحة .

فالتدخين « هوى » من البداية إلى النهاية ، وعند ما يبدأ الإنسان فى تعود التدخين يكون قد بدأ فى الهوى أو أراد الهوى إن صح هذا التعبير ، وليس كذلك من يتناول الدواء أو يتناول الطعام ، أو يتناول حتى اللون المحبوب لديه من ألوان الطعام .

وتعطيل الإرادة أصيل فى الهوى كله ولا سيما الهوى الذى نسميه بالعشق أو نسميه بالغرام .

لأن المرء يرتبط فيه بإرادة شخص آخر فهو مقيد بهذا الارتباط الذى لا تتفق فيه الإرادتان فى جميع الأحيان .

ثم يتقيد الشخصان معاً بإرادة النوع كله أو بالإرادة القاهرة التى تتمثل فى الغريزة النوعية وتتغلب كثيراً على إرادة العاشقين ، وإن اتفقا على حالة من الحالات .

ثم يتقيدان بالعرف الذى يفرضه المجتمع وتفرضه الآداب والأخلاق فوق ما تفرضه الطبيعة من طريق الغريزة النوعية .

ثم يتقيدان بظروف المعيشة وأحوال الدنيا التى تتاح على

وفاق الهوى أو لا تتاح .

فإذا تميز العشق بين سائر العلاقات الإنسانية بخاصة من الخواص الظاهرة فأكبر ما يتميز به هذا التقييد الشديد لإرادة العاشق من جملة نواحيه .

وقد يبلغ به هذا التقييد لإرادته أن يحول بينه وبين فهم إرادته فلا يعلم ماذا يريد فضلا عن أن يعلمه ويعجز عنه ، فإذا به قد انقسم على نفسه كما ينقسم المعسكر الواحد إلى ضدين متحاربين ، ولا غنيمة لأحد منهما فى الانتصار ، إذ هو انتصار لا يخلو فى الحالتين من خسار .

وينتهى به الأمر إلى البقاء على حاله عجزاً عن تغييره لا سروراً به ولا رغبة فيه .

فهو لا يتعلق بمعشوقه لأنه راض عن هذه العلاقة يلتذها ويتشهاها ويتذوق النعمة والهناءة فيها ، ولكنه يتعلق به لأنه عاجز عن فراقه ، مقيد بضروب من العادات والوساوس لا حيلة له فيها ولا قدرة له عليها .

ومثله فى ذلك مثل المدمن الذى يتعاطى السموم ولا يجهل بلواها ، ولكنه يقلع عنها فلا يقر له قرار ، فيمضى فيها وهو كاره لها يبحث ما استطاع عن سبيل النجاة .

وقد قيل بجميل كل سبب يوجب عليه ، لو ملك اختياره ،

أن يسلو بثينة ويقلع عن هواها ، فكان جوابه لكل سبب من هذه الأسباب أنه لا يستطيع ؛ ولم يكن جوابه أنه يجهل تلك الأسباب أو أنه يعرفها ولا يراها موجبة عنده للتفكير فى السلو والفراق .

قال له أبوه : « يا بنى ! حتى متى أنت عَمِهٌ فى ضلالك ، لا تأنف من أن تتعلق بذات بعل يخلو بها وينكحها وأنت عنها بمعزل ، ثم تقوم من تحته إليك فتغرك بخداعها وتريك الصفاء والمودة وهى مضمرة لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها ، فيكون قولها لك تعليلا ، وغروراً ، فإذا انصرفت عنها عادت إلى بعلها على حالتها المبذولة . . . إن هذا لذل وضيم . ! ما أعرف أخيب سهماً ولا أضيع عمراً منك . فأنشدك الله إلا ما كففت وتأملت أمرك . فإنك تعلم أن ما قلته حق ، ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها ، ولكن هذا أمر قد فات واستبدّ به من قدر له ، وفى النساء عوض » .

وهذا كلام مقنع لا ينكره منكر ، ويعلم جميل أنه حق كما قال أبوه .

فإذا علم المرء هذا ولم يعمل به فليس لذلك إلا علة واحدة وهى شلل الإرادة ، وأنه فى حال كحال المريض الذى لا يملك الشفاء ، بل ربما كان شراً من هذا المريض فى استسلامه

لدائه ، لأن المريض قد يريد الشفاء ويتوسل إليه بوسائله التى فى يديه ، ولكن العاشق الذى برح به العشق كما برح بجميل مشلول الإرادة حتى عن التوسل بما يستطيع أن يحاوله من وسائل الشفاء .

وهكذا كان جواب جميل لنصيحة أبيه . فقال له : « إن الرأى ما رأيت والقول كما قلت » ثم قال : « ولكن هل رأيت قبلى أحداً قدر أن يدفع قلبه هواه ؟ أو ملك أن يسلى نفسه؟ أو استطاع أن يدفع ما قضى عليه ؟ والله لو قدرت أن أمحو ذكرها من قلبى أو أزيل شخصها من عينى لفعلت ، ولكن لا سبيل إلى ذلك . وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لى ، وأنا أمتنع من طروق هذا الحى والإلمام بهم ولو مت كمداً ، وهذا جهدى ومبلغ ما أقدر عليه ! »

وقال له ابن عمه روق مقالة الند للند الذى يفهمه ويستثير نخوته بالمناظرة فى الفتوة والمقاربة فى السن :

« إنك لعاجز ضعيف فى استكانتك لهذه المرأة وتركك الاستبدال بها مع كثرة النساء ووجود من هو أجمل منها ، وإنك منها بين فجور أرفعك عنه ، أو ذل لا أحبه لك ، أو كمد يؤدى إلى التلف ، أو مخاطرة بنفسك لقومها إن تعرضت لها بعد إعذارهم إليك ، وإن صرفت نفسك عنها وغلبت هواك فيها

وتجرعت مرارة الحزم حتى تألفها ، وتصبر نفسك عليها طائعة أو كارهة ألفت ذلك وسلوت ! » .

وهذا كلام كله حزم وسداد ، ولكن متى كان الهوى فى اشتداده إلا مخالفة للحزم والسداد ؟

فما نصح أب فتاه بأحكم ولا أصوب من النصيحة التى سمعها جميل من أبيه .

وما استثار ند نداً بأبلغ ولا أهيج للنخوة من هذا الكلام الذى قاله له ابن عمه .

ولكنه أجاب هذا وذاك بجواب واحد هو العجز والبكاء ، وقال لابن عمه كما قال لأبيه : « يا أخى ! لو ملكت اختيارى لكان ما قلت صواباً ، ولكنى لا أملك الاختيار وما أنا إلا كالأسير لا يملك لنفسه نفعاً ! »

أو كما قال فى شعره :

هى السحر إلا أن للسحر رقيـــةً
وإنى لا ألقى لهـــا الدهر راقيا

وأكد ذلك أوثق التأكيد حين حاول أن ينفيه فقال :

يقولون مسحـــور يجن بذكرها
وأقسم ما بى من جنون ولا سحـــر

ولم يلبث أن كشف عن السحر كله والجنون كله حين أردف هذا البيت ببيت تال يقول فيه :

وأقسم لا أنساك ما ذر شارق   وما هب آل فى معلمة قفر [١]

وإنما يقسم هذا القسم من هو مجنون ومسحور ، أو من سماهم الناس بالمجانين لأنهم لا يملكون ما يريدون ، ويوشك أن يكرهوا إرادة الخلاص لو ملكوه . فهم فى حبهم للمعشوقة التى هم مفتونون بها على حد قول المتنبى فى افتتان الأحياء عامة بالحياة :

وإذا الشيخ قال أفّ فما ملّ
حياة وإنما الضعف ملّا

لا يشكون العشق لأنهم يطلبون الفكاك منه ، وإنما يشكونه لأنهم يطلبون الفكاك من ألمه إن استطاعوه ، وإلا فالبقاء فيه مع ألمه حين لا يستطيعون .

* * *

وظاهر أننا — فى قصة جميل وبثينة — أمام عارض نادر من عوارض العلاقة الغرامية ، لأن المشاهد المتواتر أن هذه

(١) ذر شارق : أى طلع نجم ، والآل هو السراب الذى يبدو فى المعلمة القفر أى الصحراء .

العلاقة تجرى فى مجراها بين كثير من الرجال والنساء ، دون أن تصل إلى هذه اللجاجة الموبقة التى وصل إليها جميل .

ولا شك أن الغرائز النوعية أقوى من إرادة الفرد إذا تحكم النزاع بينهما وبلغ مبلغ الصدام الذى لا محيص فيه من الغلبة لإحداهما . ولكن المسألة هى أن الغريزة النوعية والإرادة الفردية لا تبلغان هذا المبلغ من النزاع والصدام إلا لعارض طارى ليس بالمتكرر فى جميع الأحوال ، وهذه هى الندرة التى يدل وقوعها على شذوذ فى الفرد أو شذوذ فى الأحوال التى تعرضت لها علاقته الغرامية .

فالعشق أصيل فى طبائع الإنسان إذا نحن رددناه إلى الغريزة النوعية ؛ بل هو أصيل فى طبائع بعض الأحياء من الطير والوحش كما ظهر من تلازم بعض الأزواج واقتصار بعض الذكور على بعض الإناث ، بغير تبديل إلى أمد طويل .

ولكن الغريزة النوعية لم تخلق لشقاء الأفراد ضربة لازب ، ولا يلزم من خدمتها النوع أنها تمحق الفرد وتتقاضاه حقه من الهناءة والحرية فى جميع الأحوال . ولا سيما إذا تحققت مصلحة النوع بغير هذه التضحية التى لا توجبها خدمة فرد ولا خدمة نوع .

فإذا اصطدمت الغريزة والإرادة الإنسانية على اطراد دائم مدى الحياة فهنالك شذوذ لا محالة فى هذه الإرادة أو فى

الأحوال التى أحاطت بها ولابستها ، وذلك هو الشذوذ النادر الذى نشاهد مثلاً من أمثلته الواضحة فى قصة جميل .

والأغلب — فيما يبدو لنا — أن علة هذا الشذوذ راجعة إلى جميل نفسه قبل مرجعها إلى الأحوال التى أحاطت به وبمعشوقته بثينة .

فقد اصطلحت عليه أسباب كثيرة توهى من إرادته وتعرضه للعجز عن مقاومة هذه المحنة التى غلبته على رأيه .

فكان مدللا قليل التمرس بالمصاعب كما يغلب على عامة المدللين ، وكان وسيما تميل به وسامته إلى التصدى لهذه الأهواء والتفرغ لها والوقوف على طريقها ، وكان المزاج الفنى — أو مزاج الشاعرية — معواناً له على التمادى فى هذه الغواية واستيحاء المقاصد الشعرية منها ، وبخاصة حين أغناه اليسار عن معالجة الشعر فى أبواب المديح والرحلة إلى الأمراء والرؤساء ، وكان فارغ الوقت لا تملأه الشواغل بما ينسيه أو يسليه أو يقسم وقته بين عمله وهواه ، وكان مع هذا ضعيف الرأى قليل الحزم كما ذكرنا فى فصل آخر من فصول هذه الرسالة ، وهى أسباب فى جملتها كافية لتعليل تلك الندرة التى جعلته من أبطال العشق المعدودين فى آداب اللغة العربية ، ويضاف إليها العصر وأثره والبيئة وحكمها ، وكلاهما كان مما يمد فى دواعى هذه الفتنة

وينحى بينه وبين وسائل الخلاص منها .

وقصة هواه لبثينة قصة من أراد الوقوع فى الهوى ، ثم وقع فيه ، وليست بقصة من أوقعته المصادفة وحاول الخلاص من البداية فامتنع عليه .

فكان فى أول عهده بالعشق يهوى « أم الجسير » أخت بثينة الكبيرة ، ثم لقى بثينة فشتمته واستملح شتمها فانصرف من تلك اللحظة عن أختها إليها ، وذلك إذ يقول :

وأول ما قاد المودة بيننـــا
بوادى بغيض يا بثين سباب

وربما دل ذلك على خليقة من الخلائق التى نفهم بها لحاجته فى علاقته الغرامية على نحو يندر جداً بين الأقوياء ذوى الغلبة من الرجال .

فمن خلائق بعض الضعفاء أن تغريهم الإساءة والحرمان ، وتزيدهم كلفاً على كلف بمن أحبوا من النساء ، ولا سيما المرأة التى تحسن أن تمزج المنع بالإغراء والإطماع بالإقصاء ، وفى هذا يقول من قصيدة أخرى :

ولست على بذل الصفاء هويتها
ولكن سبتنى بالدلال وبالبخـــل

فالسباب استهواه والبخل سباه ولج به فى هواه ، وتلك أبداً آية من آيات العجز وضعف الثقة بالنفس وتعليق تلك الثقة بمشيئة غيره ، إن أقبلت عليه معشوقته رضى عن نفسه واستراح إلى هذا الرضى ، وإن أعرضت عنه ظل فى حيرة وابتئاس لا يزولان إلا أن يزيلهما إقبال جديد ، وأما هو فليس بقادر على أن يستغنى برأيه أو يستمد الثقة من قرارة نفسه ، ولو قدر على ذلك لكان إعراض المعشوقة عنه داعياً من أكبر دواعى القطيعة والجفاء ، ولكان فى وسعه أن يعرض عنها ويكف عن التعلق بها ، ولا يضيره ذلك أو يشعره بنقص فى طمأنينته النفسية ، لأنها طمأنينة لا تتعلق بمشيئة سواه .

وفى بعض الضعفاء خليقة قريبة من هذه الخليقة أو هى هى فى مظهر من مظاهرها المختلفة ، ونعنى بها «حب التعذيب» والحنين إليه ، ومن هؤلاء من يلتمسون الضرب والإيجاع فى بعض الأحيان ويسعون إليه ، وقد يستأجرون من يضربهم ويوجعهم كما يصنع أناس من أصحاب هذه الخليقة فى بعض العواصم الأوربية ، ويقترن ذلك دائماً بالنزعات الجنسية على نحو من الأنحاء .

فإذا كان جميل من أصحاب هذه الخليقة فهواه على تلك الصورة مفهوم ، وأسباب اللجاجة فى الهوى عنده أكثر من أن تحتاج إلى مزيد .

أقبلت بثينة على وادى « بغيض » وفيه إبل جميل لترد الماء مع جارة لها ، فنفرت الإبل عن المورد ، فسبها جميل وسبته ، فكان هذا أول التعارف بينهما وأول الغرام ، ونسب بها منذ ذلك اليوم بعد أن كان ينسب بأختها أم الجسير .

وقيل إن جميلا خرج فى يوم عيد والنساء إذ ذاك يتزين ويبدو بعضهن لبعض ويبدون للرجال ، فوقف على بثينة وأختها أم الجسير فى نساء من بنى الأحب ؛ ورأى منهن منظراً عجيباً فقعد معهن وعشق بثينة ، ثم راح ومعه فتيان من بنى الأحب عرفوا فى نظره حبها ووجدوا عليه ، وقال ينسب بها من أبيات :

عجل الفراق وليتــــه لم يعجل
وجرت بوادر دمعك المتهلـــل
لن تستطيع إلى بثينة رجعـــة
بعد التفرق دون عام مقبـــل

ثم علمت بثينة أنه نسب بها فحلفت بالله لا يأتيها على خلاء إلا خرجت إليه ولا تتوارى منه .

وهنا موضع آخر للعجب أو للملاحظة :

لم نسب بها وهو لا يجهل أن النسيب يحول بينهما وبين الزواج كما جرت سنة البادية التى لا تخفى عليه ؟

أغلبته النزعة الفنية حتى حجبت عنه الغاية من غرامه ؟ أم هى نزوة أخرى من نزوات ضعف الرأى ومطاوعة الغواية العاجلة ؟ أم كان حديث العشق والغزل غرضاً مقصوداً لذاته لا يفكر معه فى زواج ولا اتصال ؟

أيسر ما يقال فى هذا المسلك أنه مسلك لا حزم فيه ؛ وأنه خليق أن يلقى بصاحبه فى تلك المحنة التى ابتلى بها وساق نفسه إليها .

وقد حيل فعلا بين جميل وبثينة فلم يتزوجا ، طلبها للزواج وتزوج بها رجل آخر قيل فى وصفه إنه دميم أعور وظهر من أخباره فى قصة جميل أنه كانت له زوجة قبلها ، وأن بثينة لم تعش معه طول حياتها ، وذلك هو نُبيه بن الأسود العذرى الذى قال فيه جميل :

لقد أنكحوا جهلا نُبيها ظعينة
لطيفة طى الكشح ذات شَوًى خدل

فهى زيجة لا تغتبط بها الفتاة وليس من شأنها أن تقطع الصلة ما بين بثينة وجميل ، بل لعلها أحرى أن توثقها وتمكن من عراها ، ولاسيما إذا كان الزوج مشنوءاً لفتوره وخوره وقلة حميته وعجزه عن إرهاب غريمه ، كما كان مشنوءاً لدمامته

وتفاوت السن بينه وبين عرسه ، وكذلك كان نبيه بن الأسود فيما وصفته لنا الروايات المختلفة كلما ألم جميل بالحى وطرق بيوت بثينة وأهلها فلم يجاوز غضب نُبيه أن يشكوها إلى أبيها وأخيها .

وكأنما اتفقت الدواعى جميعاً على إطالة العلاقة بين العاشقين فطالت ولم يقطعاها معاً حتّى قطعها الموت ، وتخللها ما لا بد أن يتخللها من قرب وبعد ، ولقاء وجفاء، ووشاية وغيرة ، وفرص موالية وأخطار معادية ، مما نقله إلينا الرواة أو لم ينقلوه ، ومما صدقوا أو لم يصدقوا فيه ، ومما تناقضوا فى نقله ولا حاجة بنا إلى اتفاقهم عليه .

فبعض هذا التناقض يثبت القصة فى جملتها ولا ينفيها ، لأنه يرينا أن القصة واقعة ينقلها أناس كثيرون ويسمعونها من شتّى المصادر ، وليست بالاختراع الموضوع الذى يلفقه قاص فيقدر على التوفيق بين أجزائه والمقابلة بين أطرافه .

وبعض هذا التناقض يرجع إلى تقديرات النقاد أو القراء فيما يحكمون به على الحب وما يجوز فيه ولا يجوز فيستبعدون الخبر الذى هو بعيد عن الحب فى تقديرهم ، ويميلون إلى اتهام الرواة فيه بالوضع أو قلة التحقيق .

من ذلك مثلا أن صديقنا الدكتور طه حسين يرى من دواعى التشكيك فى قصة جميل أنه غدر بصاحبته مرة وأن «الغدر

لا يمكن أن يصدر عن حبيب عذرى كما نفهمه »

فأحصى الدكتور ألوان الشكوك ومنها اللون الثانى وهو كما قال :

« شيء من الغدر لا يمكن أن يصدر عن حبيب عذرى كما نفهمه ، ولا كما كان يفهمه القدماء . زعموا أن أهل بثينة أذاعوا فى الناس أن جميلا لا ينسب بابنتهم وإنما ينسب بأمة لهم ، فغضب جميل لهذه المقالة وأراد أن يكذبها ، فواعد بثينة والتقيا ذات ليلة فتحدثا ، ثم عرض عليها جميل أن تضطجع فمانعت ثم قبلت وأخذها النوم ، فلما استوثق جميل من ذلك نهض إلى راحلته فمضى وأصبح الناس فرأوا بثينة نائمة فى غير بيتها فلم يشكوا فى أنها كانت مع جميل . وقال جميل فى ذلك شعراً . أتظن أن مثل هذا الخبر يمكن أن يكون حقاً وأن رجلا كجميل كان يحب بثينة حباً كالذى نجده فى شعره يستطيع أن يعرضها لمثل هذه الفضيحة ؟ »

فتقدير الدكتور هنا لحب جميل وما ينبغى أو لا ينبغى لمثل حبه هو الذى أظهر التناقض فى هذه القصة وجنح به إلى تكذيبها .

أما إذا أخذنا بتقدير غير هذا التقدير فلا تناقض ولا موجب إذن للتكذيب .

وعندنا نحن أن حب جميل لا يمنع أن يعرضها لتلك الفضيحة لأنها لا تتجاوز معنى قصيدة من القصائد الكثيرة التى تغنى فيها بحبها ولقائها ومناجاتها ، ثم أرسلها فى أفواه الرواة تطوف البادية والحاضرة حيث قدر لها المطاف

وجميل على ما يظهر من شعره يهتم بالنسيب والقالة حتى ليجازف فى سبيلها بحظه كله من معشوقته وهو عالم بهذه المجازفة ، فينسب بها وقد علم أن هذا النسيب يحرمه أن يتزوج بها ويقسمها لغيره من طلابها . ونحن مع هذا نصدق حبه ونصدق نسيبه ولا نقول : لو كان محباً حقاً لترك النسيب بالمحبوبة ليظفر بها ولا يفقدها

فالتناقض فى القصة التى استشهد بها الدكتور طه تقديرى يزول — أو يزول مؤداه — متى اختلف التقدير

وربما اختلف التقدير فكان من أسباب توكيد الخبر أو ترجيحه ولم يكن من أسباب استبعاده ونفيه ، لأن الرجل الذى يشغله النسيب هذا الشغل الشاغل يكرثه حقاً أن يقال إنه يتغزل بأمة شائهة وأنه مسلوب العقل مضيع الحياة فى هواها ، ويهون عليه أن يعلن حقيقة هواه ولا يهون عليه أن يحتمل هذه الوصمة المهينة وعلالته فى ذلك أنه لا يخشى ضرراً من الفضيحة على من يهوى لأنها قد اشتهرت قبل ذلك بملاحقته لها ولم يصبها

مصاب من ذويها ، غير الشكاية والزجر الذى لا يضيرها

والزهو بعدُ عنصر من عناصر العشق لا سبيل إلى نكرانه والاستخفاف بإغرائه وتحريضه

فالعاشق قد يحتمل النكبة الفادحة ولا يحتمل الغض من مكانته فى نفس معشوقه ، والشك فى هذه المكانة هو أكبر لواعج الغيرة ، والحرص عليها هو أقوى أواصر المحبة ، وقد يجازف بمنفعته وراحته ولا يجازف بلقاء تهمة تغض من تلك المكانة وتذيلها وتسقطها عنده وعند غيره

فجميل صاحب النسيب الذى ضيع فى سبيله بثينة كلها ليس بعجيب منه أن يعرضها لفضيحة لا تضيرها ، فى سبيل كرامة هواه وكرامة نسيبه وكرامة نسبه وأهله

وقد ينبغى ذلك فى الهوى العذرى أو لا ينبغى فيه ولا فى هوى من الأهواء ، ولكن من هو العاشق الذى يعمل ما ينبغى ولا يعمل ما دونه ؟

إنه قد يريد أن يتحامى الضرر الذى يحيق به هو ولا يملك أن يتحاماه ، وقد يريد أن يدرأ الفضيحة عن نفسه ولا يملك أن يدرأها ، فلا نحاسبه بما يريد ولا بما ينبغى فى عرفه وعرف الناس ، وإنما نحاسبه بما يساق إليه وبما هو مغلوب عليه ، وليس بمستبعد على مغلوب أن يعمل عملا لا يرضاه ساعة عمله ،

وقد يأتيه وهو نافر منه ساعة يأتيه

* * *

ومن النقائض التى تنجم عن تقدير القراء والنقاد أنهم ربما رأوا للهوى العذرى صفة الكمال ثم يرون هذا الهوى فى كلام جميل وأخباره على صفة أخرى

فالهوى العذرى كما شاع على ألسنة واصفيه هوى بعيد من الجسد ونزعاته ، باق ما بقيت الحياة ، ثم هو لا يزال قانعاً على مدى الحياة؛ بالنظر والحديث والمناجاة، وقد يتورع عن الملامسة والتقبيل كأنه صلة قائمة بين روحين لا يتمثل لهما جثمان

وقد وصف جميلٌ هواه على هذه الصفة فى بعض ما نسب إليه فقال :

لا والذى تسجد الجباه له مالى بما دون ثوبها خبر
ولا بفيها ولا هممت به ما كان إلا الحديث والنظر

وقال يصف ليلة مع بثينة :

خليلان لم يقربا ريبة ولم يستخفا إلى منكر

وقال عباس بن سهل الساعدى : « دخلنا على جميل وهو يحتضر ، فنظر إلىّ وقال : يا ابن سهل ! ما تقول فى رجل لم

بشرب الخمر ولم يزن ولم يقتل النفس ولم يسرق، وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ؟ قلت : أظنه قد نجا . فمن هذا الرجل ؟ قال : أنا . . . قلت : ما أحسبك سلمت وأنت تشبب ببثينة منذ عشرين سنة . فعاد يقسم : لا نالتني شفاعة محمد إن كنت وضعت يدي عليها لريبة ، وأكثر ما كان مني أن أسند يدها إلى فؤادي أستريح ساعة ! »

ووصفوا لقاءه إياها فقالوا إنه كان إذا أقبل حتى كان غير بعيد دعته إلى الجلوس فكأنه لصق بالأرض . . . « ثم يسلم عليها ويسألها عن حالها وتسأله هي مثل مسألته . ثم تقرب إليه جاريتها الطعام فيأكل ، وتستنشده ما قال فيها فينشدها ، ولا يزالان يتحدثان لا يقولان فحشاً ولا هجراً حتى إذا قارب الصبح ودع كل منهما صاحبه أحسن وداع ، وانصرفا وكل منهما يمشي خطوة ويلتفت إلى صاحبه حتى يغيبا . . . » .

وعلى ذلك انقضت السنون بعد السنين يفترقان ما يفترقان ثم يلتقيان هذا اللقاء ، حتى افترقا إلى غير لقاء

إلا أن أخباراً أخرى في سيرة جميل تصرح بمبيته عندها واضطجاعه معها ، وقد صرحت قصائده غير مرة بالتقبيل والعناق كما قال :

تجود علينا بالحديث وتارة　　تجود علينا بالرضاب من الثغر

وكما قال :

كأن فتيت المسك خالط نشرهـا
تقـل به أردانهـا والمرافـق
تقوم إذا قامت به من فراشهـا
ويغدو به من حضنها من تعانق

وأشباه ذلك فى شعره غير قليل

وربما حلف لها فى بعض شعره أنه لم « يمس جلداً غير جلدها » حيث يقول :

حلفت يميناً يا بثينـة صادقـاً
فإن كنت فيها كاذباً فعميت
إذا كان جلد غير جلدك مسنى
وباشرنى دون الشعار شريت[1]

فهى كانت تتصل به وتتهمه بالاتصال بغيرها ، وهو أيضاً لم يكن يكتم الشك فيها وإلقاء الريبة عليها ، وله فى ذلك كلام صريح يقول منه :

---

(١) الشعار : ثوب يباشر الجسد ، وشريت : أى أصبت بالشرى ، وهو طفح مؤلم يظهر على الجلد .

تظل وراء الستر ترنو بلحظهـــا
إذا مر من أترابهـــا من يروقها

ويقول :

بثينة قالت يا جميل أربتنى
فقلت كلانا يا بثين مريب !
وأريبنا من لا يؤدى أمانـــة
ولا يحفظ الأسرار حين يغيب
بعيد على من ليس يطلب حاجـــة
وأما على ذى حاجة فقريب

أو يقول مبكتاً لها :

لحا الله من لا ينفـــع الوعد عنـــده
ومن حبله إن مد غير متـــين
ومن هو ذو وجهين ليس بدائم
على العهد حلاف بكل يمين
ولست وإن عزت عليّ بقـــائل
لهـــا بعد صرم يا بثين صليني

أو يقول مبكتاً نفسه :

وإنى لأستحيي من الناس أن أرى
رديفاً لوصـــل أو عليّ رديف

وأشرب رنقاً[1] منك بعد مودة
وأرضى بوصل منك وهو ضعيف
وإنى للمــاء المخالط للقذى
إذا كثرت وراده لعيــوف

وبلغه يوماً أن بثينة استبدلت به حجبة الهلالى فقال :

فيا بثن إن واصلت حجبة فاصرمى
حبالى وإن صارمتـــه فصلينى
ولا تجعلينى أسوة العبد واجعلى
مع العبد عبداً مثله وذرينى

وحدث كما جاء فى سيرته أنه سافر إلى الشام مرة فاتصلت بثينة بعده بحجبة هذا ثم طلب منها حجبة حين عاد جميل أن تصارحه بتركها إياه وتغيرها عليه فقالت أو قيل على لسانها :

ألم تر أن الماء غير بعدكم وأن شعاب القلب بعدك حُلّت

فأجابها وقد علم ما تريد :

فإن تك حُلّت فالشعاب كثيرة وقد نهلت منها قلوصى وعلّت[2]

---

(١) الرنق : الكدر (٢) القلوص : الطويلة القوائم من الإبل ، والنهل أول الشرب والعلل الشرب للمرة الثانية

وكان لبثينة فتى من بنى عمها يتحدث إليها فاستراب به جميل وذهب يتحدث إلى غيرها ، « وجعل كل واحد منهما يكره أن يبدى لصاحبه شأنه » حتى غلبه الأمر فأقبل على البيت الذى كان يجتمع فيه معها وأقبلت هى إليه ولم تبرز له ، وجعل كل منهما يطالع صاحبه ، فأنشأ يقول :

لقد خفت أن يغتالنى الموت عنوة
وفى النفس حاجات إليك كما هيا
وإنى لتثنينى الحفيظة كلما
لقيتك يوماً أن أبثك ما بيا
ألم تعلمى يا عذبة الريق أننى
أظل إذا لم أسق ريقك صاديا

فرقت له بثينة وقالت لمولاة لها كانت معها : ما أحسن الصدق بأهله ، ثم اصطلحا ، فسألته بثينة أن ينشدها قوله :

تظل وراء الستر ترنو بلحظها
إذا مر من أترابها من يروقها

فأنشدها إياها ، فبكت وقالت : كلا يا جميل ! ومن ترى أن يروقنى غيرك ؟

* * *

فتلك جملة من الأخبار المتفرقة تفضى بنا إلى نتيجة ظاهرة وهى أن الهوى بين جميل وبثينة لم يكن خلواً من نزعات الجسد ولم يكن خلواً كذلك من الشك والريبة وتهمة الخيانة من الجانبين . فماذا تقول فى ذلك ؟ أنقول إنه تناقض ؟ . . . نعم هو تناقض لا شك فيه ، ولكنه تناقض فى طبيعة العاطفة نفسها أو فى حالاتها وتعبيراتها ، وليس هو مع ذلك بمانع حصولها ، لأنها تحصل متناقضة الحالات والتعبيرات ، وكذلك العواطف جميعاً لا تلتزم الدقة المنطقية فى جميع الأوقات

فجائز جداً أن يكون جميل قد أعلن براءته فى بعض شعره ، وجائز أن يكون جميل قد كشف الحقيقة فى بعضه الآخر ، وجائز جداً أن يكون عذرياً فيما اعتقد ونوى ، وأن تخالطه النزعات الجسدية فيما طغى به الهوى

ذلك كله جائز جداً وهو الذى يحصل كل يوم ولا نزال نراه حيثما التفتنا إليه

يحصل كل يوم أن ينوى الإنسان البراءة ويقع فى الريبة على غير وده ، ويحصل كل يوم أن يعبر عن هذا وعن ذاك فى حينه ولا يكون ذلك نافياً لما حصل بل مؤيداً لما تعودنا حصوله كل يوم ، ولا سيما إذا علمنا أن صاحب القصة إنسان

لا يملك مشيئته ولا يزال محاولا يضطرب فى محاولاته ، فيود حيناً ما يأباه فى آخر ، ويستنكر فى يومه ما كان ارتضاه فى أمسه ، ولعله يعود فينكره فى غده

وإنما نحن نفرط فى التصديق إذا فهمنا أن قبيلة من القبائل تصف هواها بالبراءة التى لا يطرقها الزغل فيكون هذا الوصف عاصما لكل فرد من أفراد القبيلة ، مبطلا لكل خبر يخالف تلك الصفة

ونفرط كذلك فى التصديق إذا فهمنا أن الرجل ينوى الأمانة فيكون معنى ذلك أنه لم يخالف الأمانة مختاراً أو مضطراً إلى المخالفة ، ونحن متناقضون فى هذا الفهم لأننا نلمس كل يوم ما يناقضه ولا يستقيم فى طريقه

فجميل وبثينة إنسانان كسائر الناس ، لا نحكم على عمل من أعمالهما بالمناقضة وننفيه إلا إذا ناقض الطبيعة البشرية وكذب ما تواتر من أخبار الناس

وكل ما يبدو لنا من أخبارهما أنهما كانا عاشقين يلج أحدهما فى عشقه ويقبل الآخر منه هذه اللجاجة

فكان جميل يتابع بثينة وكانت بثينة تقبل منه هذه المتابعة ، لأنها تألفه وتؤثره على زوجها وتستعز بهيامه ونسيبه بين أترابها ويجوز أنها عرفت غيره كما يجوز أنه عرف غيرها ، بل

يجوز أنها كانت تعتمد عليه فى بعض حاجاتها كما تعتمد المرأة على الرجل الذى يهواها ، فكان الهوى بينهما على طباق الأرض ولم يكن بالهوى السابح فى أجواز الفضاء ، وكانا إنسانين فى كل حالة من حالاتهما كما يكون كل إنسانين بدويين فى ذلك الزمن وفى تلك البيئة ، وعند ذلك لا نرى فى أخبارهما ما يناقض الواقع أو يستبعده العقل أو يخالف ما يجرى فى علاقات الغرام .

أما الهوى العذرى فقصاراه أنه كان أمنية لهما وأمنية لكل قبيلة تعتز بالمنعة والصيانة فى بناتها . إن جرى الواقع بما يخالفه فهو الواقع الذى يخالف أبداً كل عرف نصبوا إلى تحقيقه ، فما زال من دأب المثل الأعلى — أو من دأب الأمانى الاجتماعية — أنها تراد وتخالف ولا يزال الناس يريدونها ويخالفونها ، فلا ينفيها ذلك بل يدل على وجودها

وقد اتفقت أسباب شتى على توكيد هذا العرف فى قبيلة بنى عذرة وجيرانها

فهى قبيلة بادية توكل إليها أحياناً حراسة الطرق بين الحجاز وما جاوره من شماله ، ففيها طبيعة البداوة أن تعتز بالمنعة والصيانة وألا تعترف بالشبهة فى بناتها ومحارمها ، وفيها رغبة الحفاظ على هذه السمعة التى تحتاج إليها وتأبى أن تمس فيها ، وإلا ديس حماها وبطلت حراستها وتخطاها من يعتمد عليها

وهى مع هذا قبيلة تجاور الحجاز وتعرف الإسلام وتنكر ما ينكر من إثم وتفرض ما يفرض من حدود . فليس بمباح عندها أن تتصل المرأة بغير زوجها ، وليست إباحة ذلك فعلا بمانعتها أن تنكرها وتبرأ منها فى حياتها الاجتماعية

ونحسب أن المنعة فى العشق أو الاستعصام فى العلاقات بين الرجال والنساء مصلحة طبيعية نوعية ، بل مصلحة « فزيولوجية » كما نستطيع أن نسميها فى العصر الحديث ، وليست بمصلحة اجتماعية فى القبيلة أو مصلحة دينية يوجبها الدين وحده ولا يوجبها شىء غيره على اتباعه

فإذا كانت آداب العشق هى الآداب التى تكشف الفضائل النوعية فى العاشقين معاً فالاستعصام لازم فيها والتجمل بالعفة ضرورة من ضروراتها ، لأن الاستسلام للشهوات ضعف لا يرشح صاحبه للبقاء ولا يدل على استحقاقه للحب والإيثار

وإذا قال اليوم بعض الثراثرة المتعجلين إن العقائد القديمة هى التى كانت وحدها توجب الاستعصام على الفتيان والفتيات ، وإنهم خلقاء أن يحمدوا الإباحة متى تحرروا من ربقة العقائد القديمة ، فهؤلاء الثراثرة المتعجلون لا يفقهون ما يقولون

إن الفتى والفتاة يجب أن يستعصما ولو لم يؤمنا بدين من الأديان الكتابية أو غير الكتابية ، لأنهما فى دور العشق يعرضان

فضائل النوع فيهما ، وليس من فضائل النوع أن ينساق الفتى أو الفتاة لأول غواية ، وأن تكون الشهوة هى كل ما يصبي الواحد منهما من زميله

فالطبيعة والدين معاً يدعوان إلى العصمة بين العاشقين وينكران التدفع إلى الشهوات فى غير مساك ولا ممانعة ، وخليق أن يتأكد ذلك فى القبيلة البدوية التى تهمها المنعة وتجاور كعبة الدين وتجرى على سنة الطبيعة ، فلا يضعف فيها ذلك التوكيد إلا العارض يوهى الحوزة ويبيح المحظور ، أو على انحراف يغاضى عنه العرف ويزعم أنه لا يقره ولا يراه

فما اشتد من عصمة العرف بين العذريين فمعقول لا ينقض ما توجبه السنن الطبيعية

وما جاء فى سيرة جميل وبثينة خلافاً لذلك العرف أو وفاقاً له فمعقول كذلك فى خلافه ووفاقه ، لأن مخالفة العرف شيء يقع ولا يمتنع ، وشيء له أسباب فى الحياة الفردية كالأسباب التى أوجبت العرف فى الحياة الاجتماعية

وقد أجملنا الإشارة إلى هذه الأسباب وتلك الأسباب ، فخلص لنا منهما أن جميلا وبثينة عاشقان طبيعيان ، وأن ما جرى بينهما وروى عنهما لا يناقض ما يكون ولا ما كان ، ولن يوجدا على غير ما وصفا ، حيث وُجدا فى تلك البيئة وفى ذلك الزمان .

أحسن الغزل

كان العرف الشائع بين نقاد الغزل فى الشعر العربى إلى عهد قريب أن أحسن الغزل هو ما حسن فيه وصف المحبوب وأربى على الغاية فى إسباغ المحاسن عليه . فمن جعل محبوبه عصمة فى الجمال لا يمسه نقص ولا يلحق به عيب فهو أغزل ممن وصفه فظهر من وصفه إياه أنه معيب فى بعض نواحى خلقه وخلقه ، ومن قال إن محبوبه كالشمس أغزل ممن قال فيه إنه كالبدر أو كوكب من كواكب الليل التى لا تبلغ مبلغ البدر والشمس فى الإشراق والجمال

وهذا كما يرى من النظر اليسير خلط ذريع بين أمور كثيرة : خلط بين الاستحسان والعشق وهما مختلفان .

لأن الاستحسان قد يأتى من العاشق وغير العاشق ، ولا يلزم من عشق الرجل امرأة من النساء أنها فى نظره أجمل من كل امرأة رآها . فربما عرف عيوبها وعرف محاسن غيرها فأحبها بعيوبها ولم يحبب صاحبة المحاسن المفضلة فى عينيه

وخلط بين هوى الشخصية وهوى الصفات . فمن شروط العشق الأول أنه يميز للعاشق شخصية واحدة بين جميع الشخصيات

التى يراها . فهو يحل « المشخصات » لفرد من أفراد الجنس فى محل أعلى وأرفع من الصفات التى تعم بحسنها كل من اتصف بها ، ويرجع هذا التمييز إلى أسباب كثيرة لا تقتصر على استحسان الجمال : منها تقارب العواطف ، ومنها المصادفة التى تجمع بين العاشقين فى أحوال مهيأة للتعلق والالتفات ثم للألفة والهيام ، ومنها إحساس النقص فى العاشق وما يتممه من مزايا المعشوق ، ومنها قدرة المعشوق على إعزاز مكانته فى قلب العاشق وإن لم تكن له فتنة جمال

ثم هو خلط بين خصائص المعشوق وخصائص العاشق ...

فالجمال شيء يخص المعشوق ويدل عليه . ولا يلزم من تفوق المعشوق فى الصفات المحبوبة أن يتفوق العاشق فى الصفات المحبة وأن يكون كلامه مثلا لكلام المحبين

فمن المحقق إذن أن أحسن الغزل ليس هو أحسن الثناء على المحبوب ، وقد يكون غزلا جيداً — أو شعراً غرامياً جيداً — وفيه هجو وإقذاع

ثم ينبغى أن نذكر هنا أن العشق اضطرار وليس باختيار ، فالعاشق لا يلازم معشوقه لأنه يختار ملازمته بل لأنه لا يستطيع فراقه ولو أساء إليه . فإذا رأى منه السيئات وبقى على عشقه فذلك أدل على قوة العشق من البقاء مع الاستحسان والاختيار .

إذ لا فضل ولا قوة عشق لمن يبقى على الشيء لأنه مستحسن لديه ، وقد يكون فضل العاشق وقوة عشقه فى عرفانه السيئات والسخط عليها ثم حبها مع هذا وذاك . فيكون هجاؤه أحياناً أدل على عشقه من ثنائه ، لأنه العشق الذى يغلبه على ما يريد

فالمدرسة التى تجعل الثناء والاستحسان مقياس الإجادة فى الغزل تجهل الغزل الجيد وتخلط بين جميع تلك الأمور

* * *

وهناك مدرسة أخرى تجعل « الرقة » والمبالغة فيها مقياساً للغزل والمتغزلين

فالذى يجعل قلبه موطئاً لقدم محبوبه أغزل ممن يجعل خده — ليس إلا — موطئاً لقدمه

والذى يبكى الليل والنهار أغزل ممن يبكى الليل ويكفكف دمعه بالنهار

والذى يتذلل ويتضرع أغزل من الذى يثور ويتبرم ، والذى يشبه المرأة فى كلامه معها هو على مذهبهم أصلح الرجال لعشق النساء !

وهذا الرأى من سخف الضعف والاضمحلال الذى ابتلى به الشرقيون فى زمن من الأزمان

فالعشق أقوى غريزة تختلج بها البنية الإنسانية ، وهو لم

يخلق للذة العاشقين ونعيمهما حتى يكون كل ما فيه ليناً ونعمة ورقة ، ولكنه خلق لبقاء النوع واستدامة الحياة ، فربما ذهب العاشقان معاً ضحية له فى بعض الأحيان ، وربما غلب فيه الجماح والسورة فطغى جانب الغضب على جانب الرضى ، وجارت القسوة على الرقة ، وظهر المحبان فى مظهر أشبه بصراع الأعداء منه بملاطفة الأودّاء ، لأن كليهما مسوق مغلول ضعيف الحيلة فى النجاء

وإنما نعرف أحسن الغزل حين نعرف مبعث الغزل من طبيعة الأحياء

فالغزل قبل كل شيء خاصة من خواص الذكور فى الإنسان وفى جميع الأحياء

لأن الذكور هى التى تبتدئ الغزل وتتعارك فى طلب الإناث ، وكل ما تصنعه الأنثى من دور طبيعى فى الغزل أن تتعرض له وتلبيه وتستجيب إليه

ومتى بلغ الذكر سن التغزل فآية ذلك أن يغلظ صوته ويخشوشن وتشتد فيه دوافع السطوة والطراد

فالصفات التى تجعل الغزل صالحاً للإصغاء إليه والوقوع فى موقعه هى الصفات التى تجعل الرجولة صالحة لما تستبق إليه ، وهى صفات ليس فيها تأنث ولا ضراعة ولا خفوت

وقد عرضنا لهذا البحث فى مقال من مقالات كتابنا « الفصول » وعقبنا على رأى دارون فقلنا إنه تلمس « علة الطرب من ناحية الرقة والرخامة فعسر عليه الوصول إلى مصدرها وقال فى كتابه أصل الإنسان : « لو سأل سائل ما بال بعض الألحان والأوزان يرتاح إليه الإنسان وأنواع من الحيوان ؟ لما كان فى وسعنا أن نجيب عن ذلك إلا بجواب السؤال عن سبب ارتياحها إلى بعض المذوقات والمشمومات »

ثم قلنا إننا « إذا تلمسنا علة الطرب أولا من جهة التأثر بقوة الصوت وجدنا الجواب عن ذلك السؤال سهلا قريباً وأمكننا أن نجيب من يسألنا : لماذا يؤثر أعمق الأصوات ارتجافاً وتمويداً وأكثرها تنوعاً وتجويداً ؟ فنقول له : لأنه ترجمان العاطفة الشديدة والعاطفة من شأنها أن تبعث العاطفة ، ولا يزال الغناء كذلك حتى يتعلم الناس الكلام وينعقد الصوت ألفاظاً فيتدفق الغزل من النفس المحتدمة تدفقاً قوياً عارماً ويكون أجهر الرجال رغبة أهيجهم لرغبة المرأة وأبلغهم إلى نفسها كلاماً وأغلبهم على طبعها سلطاناً . . . »

واستطردنا من ذلك إلى أن « العشق فى طبيعته الأولى بعيد عن الرفق والسلاسة ، وإنما هو شواظ لاذع يلتف دخانه بناره ، ويلتهب شوقاً إلى وقوده ، فإن أصابه خمد وعاد الشاعر يترنم

بهناءة نفسه ويغتبط بالراحة من سورة طبعه ، وإن لم يصب وقوداً كان نقمة لا تطاق . وأى رقة فى قول المجنون :

كأن فؤادى فى مخالب طائر
إذا ذكرت ليلى يشد به قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم
علىّ فما تزداد طولا ولا عرضا

« إن قلب السامع لينقبض ، وإن صدره ليحرج لهذا الوصف ، ومع هذا أى شعر أبرع من هذا الشعر وأى شاعر أطبع وأعشق من المجنون ؟

« وليس العشق الصادق حين يشب أواره وتتأزم حلقاته بالعاطفة التى يود صاحبها دوامها ويستريح إلى مناجاتها . كلا وإنما هو غمة مطبقة يود المبتلى بها لو تنقضى لساعتها . ويقوم فى نفسه عراك لا تهدأ ثائرته ولا يهنأ بالغلبة فيه ، لأنه هو الغالب وهو المغلوب ، وكأنما ينزع نفسه من نفسه فيضيق ذرعاً ويغوّث من ركوب هذا النزاع : نزاع الحيرة التى يقول فيها المجنون :

فوالله ما فى القرب لى منك راحة
ولا البعد يسلينى ولا أنا صابر

ووالله ما أدرى بأية حيلـــة
وأى مرام أو خطار أخاطر

« وكان كاتيولّس[١] الشاعر الرومانى يدعو الآلهة قائلا : أيتها الآلهة ، إن كانت لك رحمة بالقلوب الصديعة المشفية ، فبحق براءتى عليك إلا ما نظرت إلى عذابى ، ورثيت لما بى ، ومسحت عنى هذا الوباء الماحق ، والبلاء اللاحق ، وهذه اللوعة التى تسربت رعدتها فى عروقى فنفت الهناءة عن قلبى »

وهى رعدة عروة التى يقول فيها :

وإنى لتعرونى لذاكرك رعـــدة
لها بين جلدى والعظام دبيـــب

ووهلة المجنون التى يصفها بقوله :

دعا باسم ليلى غيرها فـــكأنما
أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

فإن طاوعته نفسه فى نزاعه ذاك وإلا حنق عليها ، وذهب

---

(١) Catullus شاعر لاتينى ولد فى فيرونا سنة ٨٤ قبل الميلاد ومات سنة ٥٤ وهو من أكبر شعراء العشق فى اللاتينية ومن أمثال قيس وعروة وجميل وكثير عندنا .

به الحب إلى كره ذلك المخلوق المسلط عليه ، الذى حرمه نعمة الطمأنينة ، وجلب عليه هذا الشر ، وفرق بينه وبين نفسه ، فيحب ويكره فى آن . وربما تمنى لحبيبه الموت لعل اليأس منه أن يشفيه ، كما قال جنادة العذرى :

من حبها أتمنى أن يلاقينى
من نحو بلدتها ناع فينعاها
كيما أقول فراق لا لقاء له
وتضمر النفس يأساً ثم يسلاها
ولو تموت لراعتنى وقلت ألا
يا بؤس للموت ليت الموت أبقاها

« وكان كاتيولس يقول : « إنى لا أكره وأحب . تسألنى كيف ذلك ؟ من يدرى ! ولكنى أحس بحقيقة هذا الأمر وشدة برحائه . »

وكذلك كان يقول المجنون :

فيا رب إذ صيرت ليلى هى المنى
فزنى بعينيها كما زنتها ليا
وإلا فبغضها إلى وأهلها
فإنى بليلى قد لقيت الدواهيا

« وليس فى نعت الحب بالداهية شيء من الرقة والدماثة ، ولكنها حقيقة اتفق عليها شاعران ليس بينهما جامعة من ذوق لغة ، أو مشرب قوم ، أو وحدة زمن . ولكنهما اجتمعا على عاطفة إنسانية صادقة — بل اتفق عليها كل شاعر عالج من العشق ما عالجه هذان الشاعران

« وأحياناً يثوب العاشق إلى نفسه فيبدو له كأنه مختار فى شغفه وسلوته ، وكأن الأمر لا يعنى غيره ، فإن شاء سدر فى الحب وإن شاء صدف ، وإن شاء مضى مع قلبه وإن شاء وقف . فلا ينشب أن يستيقن عجزه وقلة حيلته ، وإن الأمر فوق يده ووراء مشيئته ، وهذا الذى يصفه جميل إذ يقول :

ألا قاتل الله الهــوى كيف قادنى
كما قيد مغلول اليدين أســير

« وهنا يخيل إليه أو إلى الناس أن قوة فوق قوة الإنسان تقهره على مشيئته ، وأن رقية من رقى السحر أو طائفاً من طوائف الجن يحول بينه وبين حريته . كما خيل إلى ذلك الشاعر الرومانى حين قال : أيتها الساحرة . . . لئن جملتك طلاسمك فى عينى لتعلمن أن الوجد أطول أجلا من الإجلال ، وإنى لأهواك ولست بعد إلا محتقراً لك ، وإن عد هذا ضرباً من الخبال »

وكما يقول المجنون :

هى السحر إلا أن للسحر رقية　　وإنى لا ألقى لها الدهر راقيا

أو كما يقول جميل :

يقولون مسحور يجن بذكرها
فأقسم ما بى من جنون ولا سحر

وما الجنون والسحر إلا ما به ، وإلا فهل للعشق وصف أصدق من أنه مزيج من جنون وسحر ؟ هل هو إلا جنون يعتقل العقل ويهزأ بالحذر ويطير مع الأهواء ، فإن ثقلت عليه النهى أزاحها عن عاتقه ومضى لطيته ؟ ألا يعرف العاشق ما يوبقه ولكنه لا يحيد عنه ؟ ويبصر ما يشفيه وهو يأبى أن يذوقه ؟

« ... ومن محاسن جميل وإخوانه من الشعراء الغزليين أمانتهم فى الإعراب عن النفس والبث بالعاطفة . انظر إلى قوله :

أرى كل معشوقين غيرى وغيرها
يلذان فى الدنيا ويغتبطان
وأمشى وتمشى فى البلاد كأننا
أسيران للأعداء مرتهنان

« فهكذا ظن جميل ، وهكذا يظن كل عاشق يسمع بلذة العشق ولا يرى أين هى ، فيحسب أنه هو الشقى وحده وأن العشاق كلهم سعداء ، والحقيقة أن العشق لا يخلو من الشقاء أبداً ، ولو خلا منه لكان أشبه باللهو الذى يتشاغل به البطالون والمجان . . . »

* * *

وأول ما يستخلص من هذه المشاهدات وهذه الحقائق أن الغزل الحسن شىء لا يشترط فيه استحسان شمائل المحبوب والمبالغة فى إطرائها ، وأنه كذلك شىء لا يشترط فيه الترفق والشكوى وضراعة الخطاب ، وإنما هو التعبير الصادق عن الحب كما خلقه الله فى نفوس الأحياء ، وهو بهذه المثابة شىء أعظم من حياة الإنسان نفسه لأنه يتناول الغرائز النوعية كلها والطبائع الكونية كلها ، ولا يقتصر على فرد من الأفراد فى حالة من الحالات . فهو كالبحر اللجىّ الذى تتيه فيه العقول ويتسع للنقائض ويعج بضروب من المفاجآت ليس لها انتهاء

هو ظفر حيوى لأنه استيلاء شخصية على شخصية أخرى تنضوى إليها وتفتح لها أبواب الشعور بالدنيا على مصاريعها ، فهو إذن غبطة وفرح وانتشاء

وهو تضحية لأنه مطلب نوعى تهمل فيه منافع الفرد ولذاته

وأمانيه ، فهو إذن يأس وشدة وبلاء

وهو لذة لأن الطبيعة تحتال على الفرد أحياناً لتوقعه فى حبائلها فتريه لذته فيما تقوده إليه من أغراضها ، فهو إذن نعيم وطرب وترنيم

وهو حسرة لأنه يربط مسرات الدنيا كلها بمخلوق واحد لا ينوب عنه مخلوق آخر ، فهو إذن نعمة مهددة بالضياع والقلق فى كل حين

وهو عراك ووئام وظفر وتسليم ، واختيار وإكراه ، وعزة وذل ، وقسوة ورحمة ، وخشونة ولين

وهو كما خلق فى الغرائز جارف عنيف ، وكما تعهدته الحضارة مهذب مصقول ، ولا يزال بين الغريزة والصقل قابلا للوثبة المفاجئة من النقيض إلى النقيض ، لا ينقاد للعنان مرة إلا جذبه مرة أو مرات فكأنه منطلق بغير عنان

مثل هذا العيلم الزاخر من الحياة النوعية والحياة الفردية حمق أسخف الحمق أن يحصره المتبطلون من مصطنعى النقد فى قالب واحد أو هيئة واحدة أو لون لا يتبدل ، فمن حصره هذا الحصر وسامه هذا السوم فأقل ما يقال فيه إنه يلغوا بما لا يدريه

ونحن لا يفوتنا أن نستحضر هذه الحقيقة إلا فاتنا أن نحكم

الحكم الصحيح على كل غزل وكل عاطفة غزلية ، وكل علاقة إنسانية تستند إلى طبائع الأحياء

فجميل — مثلا — أبطل المبطلين فى عشقه وغزله عند مدرسة « الاستحسان » أو مدرسة الرقة حين قال :

رمى الله فى عينى بثينــــة بالقـــذى
وفى الغر من أنيابهـــا بالقـــوادح

لأنه سأل الله تشويه ما هو حسن فى عينى حبيبته وثغرها وهما أجمل ما يتمنى له الجمال فى وجه محبوب ، ولأنه تجافى الرقة كلها حين دعا عليها ذلك الدعاء الغليظ الذى يدعو به العدو على ألد أعدائه

ولكن هذا البيت مع هذا أدل على عشق جميل من عشر قصائد غزلية تفيض بالرقة والثناء، لأنه دليل على حب برح به وحار فى الخلاص منه وغلب على مشيئته فيه ، وظن أن البلاء كله من جمال تلك العيون وجمال تلك الثنايا ؛ فلم يبق له من حيلة إلا أن يسأل الله إتلاف هذا الجمال عسى أن يطيق بعد ذلك سلوه والراحة من بلواه . أما قبل ذلك فلا حيلة له ولا طاقة بالسلو والنسيان

هذا أعمق الحب وأصدق الغزل ، ولك أن تقول إنه غزل

صادق من رجل سيئ ، أو أنه غزل صادق من رجل طيب فى سورة البأس والحيرة ، فهذا حق لا غبار عليه . . أما أن يكون مبطلا فى عشقه وغزله لأنه تمنى تلك الأمنية ، فذلك من اللغو الذى لا صدق فيه

ولك أن تقول إنها أمنية رجل تغلب عليه « الأنانية » ويلتمس الراحة بما استطاع من وسيلة ولو كان فيها بلاء لمن يهواه ، إلا أنك لا تنسى أنه تمنى تلك الأمنية لأنه أحب وضاق ذرعاً بحبه ، وبلغ أقصى ما يبلغه العاشق من التعلق بالمعشوق والعجز عن الفكاك من إرهاقه ، فهى إن شئت « أنانية » ذميمة صادقة عنه . وهذا هو المرجع فى قياس الشعر وتحقيق العاطفة ، ولا مرجع سواه

وفى شعر جميل ما ينم على الأنانية لا مراء ، كقوله فى الرائية المشهورة :

فلا نعمت بعدى ولا عشت بعدها
ودامت لنا الدنيا إلى ملتـــقى الحشر

فهو يتمنى البقاء معها إلى ملتقى الحشر ، ولكنه يأبى عليها الحياة بعده ويسأل الله أن يموتا معاً إذا قضى الله أن يعجل بموته

ولكنها « أنانية » لا تخص جميلا بين العشاق فيما نراه ، فما من عاشق يسره أن يتخيل معشوقته وقد نعمت بعده بحب غيره ، وما فى هذه الأمنية من دليل على قلة الحب وكراهة المحبوب ، بل فيها دلائل على فرط الحب والاستغراق فيه ، ونحسب أن بثينة أرضاها هذا من دعائه فوق ما كان يرضيها دعاء السلامة لها والنعمة فى هوى العشاق بعده ، لأنها تحس ببداهة الأنوثة أنه يسر ببقائها ونعمتها بعد موته لأنه قليل الغيرة عليها فى الحياة وبعد الممات

وللشعراء العشاق من مدرسة جميل فلتات مستغربة من هذا القبيل ، أو لعلها أغرب جداً فى هذا الباب من فلتات جميل ، ولا سيما الفلتات التى أحصوها على تلميذه الأكبر كثير بن عبد الرحمن .

فقد أصبح كثير أضحوكة الأضاحيك بين الشعراء والنقاد ، لأنه قال :

ألا ليتنا يا عز من غير ريبة
بعيران نرعى فى الخلاء ونعذب[1]

---

(١) العذوب من الدواب : القائم الذى يرفع رأسه ولا يأكل أو يشرب .

كلانا به عُرٌ فمن يرنا يَقُــل
على حسنها جربى تعَدّى وأجــرب
إذا ما وردنا منهـلا صاح أهله
علينـــا فما ننفك نُرمى ونضرب
وددت وبيت الله أنك بَـــكرة
هجان وإنى مُصعب ثم نهرب[1]
نكون بَعيرىْ ذى غنى فيضيفنا
فلا هو يرعانا ولا نحن نُطلب

وعيّره نظراءه حين شاعت هذه الأبيات فقالوا له :

« ويلك ! تمنيت لها ولنفسك الرق والجرب والرمى والطرد والمسخ ، فأى مكروه لم تتمن لها ولنفسك ؟ لقد أصابها منك قول الأول « معاداة عاقل خير من مودة أحمق ! »

وصدقوا والله ما من أمنية هى أدعى إلى الضحك والسخرية من هذه الأمنية التى سألها كثير . ولكن من قال إن كثيراً لم يكن مضحكاً وسخرة حتى يستغرب منه أن يتمنى هذه الأمنية ، وأن ينظمها فى تلك الأبيات وهو صادق التعبير ؟

فقد وصفه بعضهم فقال : « رأيته فى الطواف فمن قال لك إنه يزيد على ثلاثة أشبار فكذّبه ! » ووصف بعض عشرائه

(١) البكرة من الإبل الصغيرة والمصعب الفحل الذى يراح من الركوب

حماقته فقال : « إن كثير لقيه فسأله : ماذا يقول الناس عنى ؟
فأجابه : إنهم يزعمونك المسيخ الدجال . . . قال كثير : عجباً .
والله إنى لأحس فى عينى بعض الضعف منذ اليوم !

فمثل هذا الرجل يستغرب منه إذا غلبته العاطفة أن يعبر عن نفسه فلا تفلت منه أمثال تلك الأبيات ، فهذا موضع الغرابة وليس موضعه أنه يصدق فى التعبير عن ذات نفسه كما صدق فى التعبير عما تمناه .

عاشق زرى المنظر مستحمق العقل ضعيف الحيلة يزاحمه الناس على محبوبته ويخشى أن يغلبه كل مزاحم عليها لأنه أجمل منه منظراً وأقدر على الإغواء والإغراء ، ثم تنغصه الوساوس وينظر فى وسيلة يأمن بها على صاحبته فيتركها الناس له ، ويتركونه لها ، فلا يجد من وسيلة قط غير ابتلاء عزة بالبلاء الذى يزهد الناس فيها ويقصرها على حبه وولائه دون غيره ، فيبتعد الناس عن عزة وتبتعد هى عنهم ضرورة لا محيد لها ولا لهم عنها . أما أن يبعدهم هو أو يبعدها فقد علم أنه لا يستطيع ولا يملك من فتنة ولا حيلة تعينه على ما يريد . فماذا هو صانع ؟ أيتركها ؟ إنه لا يقوى على تركها . . . أيحميها ؟ إنه لا يقوى على حمايتها . فلا عجب إذن أن يخطر له ذلك الخاطر ، وأن يتمنى الشىء الوحيد الذى يصون له محبوبته بمأمن من الغواة

والمزاحمين ، وهو ما تمناه وصدق فى تمنيه

ويخيل إلينا أن كثيراً قد رأى البعيرين الموصوفين رؤية العيان لأنه منظر لا يندر أن يصادفه الناظر مرات حيث عاش كثير ، فوقع له أن هذين البعيرين سعيدان حيث يسرحان ولا يطلبهما مالك ولا راع ، ولا هما سائلان عن علف وشراب . فتمنى السعادة على هذا المنوال ، وشهدها بالعين قبل أن يتمناها فى الخيال

أتقول إنه سخيف ؟ نعم هو سخيف لا مراء ، ولكنه محب يصدق فى التعبير عن حبه ويدل عليه دلالة لا اصطناع فيها فلا محل للخلط إذن بين سخف القائل وصدق ما قال ، ولا محل كذلك لاتهام عاطفته بما كان من رداءة تمنيه ، لأنه أحب فنغصه الحب وحيل بينه وبين التماس الراحة من غير هذه الطريق

وها نحن أولاء قد رأينا عشاقاً يتمنون الموت لمن يحبون ، وعشاقاً يتمنون التشويه لمن يحبون ، وعشاقاً يتمنون الخلاص ممن يحبون ، ورأينا أنهم أحبوا وصدقوا التعبير عن الحب وأن عيبت عليهم الأثرة أو الغفلة أو الجفاء ، فلا غرابة إذن فى شعر غرامى تعوزه الضراعة والشكاية أو يعوزه الثناء والاستحسان ، ولا شرط للغزل الصادق إلا التعبير عن الشعور الذى يختلج فى قلب صاحبه كائناً ما كان الرأى فيه وفى خلقه وعقله وأمانيه

مكانته فى الصناعة الشعرية

نشأ جميل نشأة أدبية صالحة لموطنه وعصره ، وتخرج فى مدرسة الشعر كأحسن ما يتخرج الشاعر بالحجاز فى القرن الأول للهجرة ، فكان كما جاء فى كتاب الأغانى « راوية هدبة بن خشرم ، وكان هدبة شاعراً وراوية للحطيئة ، وكان الحطيئة شاعراً راوية لزهير وابنه » فاجتمعت له الرواية والشعر مسلسلة من أساتذة فحول مشهود لهم بين الرواة والشعراء .

وكان بعض المشهورين بعلم الشعر فى زمنه يفضلونه على الشعراء كافة ويقولون إنه أشعر أهل الإسلام والجاهلية .

فروى عن نصيب الشاعر أنه قال : قدمت المدينة فسألت عن أعلم أهلها بالشعر فقيل لى : الوليد بن سعيد بن أبى سفيان الأسلمى ، فوجدته بشعب سلع مع عبد الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن أزهر . فإنّا لجلوس إذ طلع علينا رجل طويلُ بين المنكبين ، طُوال ، يقود راحلة عليها بزة حسنة . فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أزهر : يا أبا جبير : هذا جميل ؛ فادعه لعله أن ينشدنا . فصاح به عبد الرحمن : هيا جميلُ هيا جميلُ ! فالتفت فقال : من هذا ! فقال : أنا

عبد الرحمن بن أزهر . فقال : قد علمت أنه لا يجترئ عليّ إلا مثلك . فأتاه فقال له : أنشدنا . فأنشدهم :

« نحن منعنا يوم أوْل[1] نساءنا » إلى آخر الأبيات . . .

ثم قال له : أنشدنا هزجاً . فسأل : وما الهزج؟ لعله هذا القصير ! قال : نعم . فأنشده :

رسم دار وقفت فى طلله كدت أقضى الحياة من جلله

حتى فرغ من القصيدة ، ثم اقتاد راحلته مولّيا

« فقال ابن الأزهر : هذا أشعر أهل الإسلام . فقال ابن حسان : نعم والله ، وأشعر أهل الجاهلية . والله ما لأحد منهم مثل هجائه ولا نسيبه . فقال عبد الرحمن بن الأزهر : صدقت ! »

ثم قال نُصيب : « وأنشدت الوليد فقال لى : أنت أشعر أهل جلدتك ، والله ما زاد عليها »

ذلك رأى المتأدبين المشهود لهم بعلم الشعر فى عصره ، ولعلّهم غلّبوا فيه النظر إلى العشق والنسيب على النظر إلى فنون الشعر كله ، ففى هذا ولا ريب مجال لمن يشاء أن يقدّم جميلا على شعراء الجاهلية وشعراء الإسلام إلى زمانه . إذ ليس فى

---

(١) واد على طريق اليمامة إلى مكة .

الجاهلية من اشتهر بالعشق والنسيب خاصة كما اشتهر بعض الشعراء فى القرن الأول للهجرة ، وليس فى شعراء القرن الأول للهجرة من يرتفع على المقابلة بينه وبين جميل فى أغراضه ومعانيه . فإذا قال القائل على هذا الاعتبار : إن جميلا أشعر أهل الإسلام والجاهلية ، فليس فى قوله غلو كبير ، وإن جاز فيه الخلاف .

ومع تعدد الآراء فى هذا يمكن الاتفاق على أن جميلا كان ملحوظ المكانة بين شعراء زمانه وكان معترفاً له بالإجادة والأستاذية إلى ما بعد زمانه ، كما يظهر ذلك من نظر الشعراء المبرزين إلى معانيه واقتباسهم من أقواله .

لقى الفرزدق كثيراً بقارعة البلاط — بالمدينة — فقال له الفرزدق : يا أبا صخر ! أنت أنسب العرب حين تقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لى ليلى بكل سبيل

يعرض له بسرقته من جميل حيث يقول :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثل لى ليلى على كل مرقب

فأجابه كثير : وأنت يا أبا فراس أفخر الناس حين تقول :

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا

وإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا

وهذا البيت أيضاً مسروق من قول جميل :

نسير أمام الناس والناس خلفنا
فإن نحن أومأنا إلى الناس وقّفوا

وهذان شاعران بارزان من أبناء عصر جميل يعترفان فيما بينهما بالاقتباس من معانى جميل ، وهو اقتباس لا يخلو من شهادة وإكبار ودلالة على مكانة ملحوظة بين الشعراء .

وقد بقيت له هذه المكانة إلى ما بعد عصره عند أناس من شعراء العصر العباسى فى طبقة الفرزدق وكثير . فروى أن ابن الحسين المهلّبي لقى أبا العتاهية فاستنشده من شعره فأنشده :

يا صاحب الروح ذى الأنفاس فى البدن
بين النهار وبين الليل مرتهن
لقلما يتخطاك اختلافهما حتّى يفرق بين الروح والبدن
لتجذبنى يد الدنيا بقوتها إلى المنايا وإن نازعتّها رسنى [1]
لله دنيا أناس دائبين لها قدأرتعوا فى رياض الغىّ والفتن
كسائمات [2] رواع تبتغى سمنا وحتفهالو درت فى ذلك السمن

---

(١) الرسن : حبل فى رأس الدابة.
(٢) السائمة : الماشية والإبل الراعية .

قال ابن الحسين المهلّبي : فكتبتها ثم استنشدته من شعره فى الغزل فقال : يا ابن أخى ! إن الغزل يسرع إلى مثلك ، فقلت له : أرجو عصمة الله جل وعز ، فأنشدنى :

كأنها من حسنها درة أخرجها اليمّ إلى الساحل
كأنّ فى فيها وفى طرفها سواحراً أقبلن من بابل
لم يبق منى حبها ما خلا حُشاشة فى بدن ناحل
يا من رأى قبلى قتيلا بكى من شدة الوجد على القاتل

فقلت له : يا أبا إسحاق ! هذا قول صاحبنا جميل :

خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

فقال : هو ذاك يا ابن أخى ، وتبسم !

وأقل ما يدل عليه هذا وأشباهه أن شعر جميل كان يقرأ ويستحسن ويقتدى به فى معناه ، وأنه ينال هذا الاستحسان عند فحول الشعراء فضلا عن الشُّداة المبتدئين ، وهذه مكانة « الأستاذية » لا مراء .

وقد يزكى هذه المكانة أن الذين شهدوا بها كان بينهم أناس عرفوا بالخيلاء وشدة الاعتداد بالقدرة الشعرية بين النظراء ، ومنهم من كان يستحمق لفرط خيلائه كالشاعر العاشق كثير ، وهو أحرى الناس بمنافسة جميل .

فمن خيلائه أن عمر بن أبى ربيعة والأحوص ونصيباً اجتمعوا فى مكان فأرسلوا إليه راويته يدعونه إليهم ، فأكبر الأمر وسأل صاحبه متبرماً : أما كان عندك من المعرفة بى ما كان يردعك عن إتيانى بمثل هذا ؟ . . قل لابن أبى ربيعة إن كنت قرشياً فإنى قرشى ، وإن كنت شاعراً فأنا أشعر منك . . . قال راويته : هذا إذا كان الحكم إليك . فقال : وإلى من هو ؟ ومن أولى به منى ؟ . . ثم رجع الرسول إليهم فأخبرهم بما سمع منه ، فضحكوا ثم نهضوا معه فدخلوا عليه فى خيمة فوجدوه جالساً على جلد كبش ، فما أوسع لهم من مجلسه !

فهذا الشاعر على خيلائه كان لا ينى قائماً قاعداً بالشهادة لجميل وتفضيله على نفسه حيث يسأل وحيث لا يسأل وهو مزهو بالسماع منه والرواية عنه والتتلمذ عليه .

سأله نصيب : أجميل أنسب أم أنت ؟ فقال : وهل وطّأ لنا النسيب إلا جميل ؟

وسئل مرة أخرى فقال : وهل علم الله عز وجل ما تسمعون إلا منه ؟

وربما نقلوا عن كثير فى صدد إعجابه بجميل ما نستبعد صدقه سواء قاله أو لم يقله . كزعمهم أنه ذكر يوماً أنه يروى لجميل ثلاثين قصيدة لا يعرفها الناس وأنه أمات له ألف قافية

لينتحلها ويدعيها لنفسه . فإن ميدان جميل لا يتسع لألف قافية تسرق . ولا لثلاثين قصيدة تسقط من جملة شعره وهو محدود الأغراض متشابه الأنماط . وإنما يفهم من هذا الكلام إن صدر من كُثير أن فخره بالرواية عن جميل أكبر من فخره بشعره الذى يُنسب إليه ، ولولا مكانة جميل عنده وعند الناس لما وقع فى خاطره وجرى على لسانه هذا الفخار .

* * *

ولا نحسب أن أحداً ناظر جميلا على قصد منه — أو على غير قصد — كما ناظره عمر بن أبى ربيعة الذى كان كثير يستطيل عليه .

فقد كانت المناظرة بينهما طرائق متعددات لا طريقة واحدة ، فكان كلاهما شاعراً وكلاهما مشهوراً بالنسيب وكلاهما إماماً لأمثاله من المتغزلين . فكان جميل فى عصره إمام العشاق المقصورين على معشوقة واحدة ، وكان عمر بن أبى ربيعة فى عصره أمام المشغوفين بمغازلة النساء ، وكانا فوق هذا التقابل فى شتى الطرائق متقابلين فى تمثيل البداوة والحضارة ، وفى عزة النسب وعراقة الأصول . فهما متناظران يقترنان فى الميزان كلما عرض الناقد لشعراء ذلك الزمان ، وقد تلاقيا وتناشدا وقيل إن جميلا سمع منه اللامية التى فيها :

جرى ناصح بالود بينى وبينهـــا
فقربنى يوم الحصاب إلى قتلى

فقال : هيهات يا أبا الخطاب ! لا أقول والله مثل هذا سجيس[١] الليالى، وما خاطب النساء مخاطبتك أحد ، وقام مشمراً

ونميل نحن إلى قبول هذه الرواية لأن الشاعرين قد تشابها فى معان هى أقرب إلى نمط ابن أبى ربيعة منها إلى نمط جميل فقال جميل :

إذا خدرت رجلى وقيل شفاؤها
دعاء حبيب كنت أنت دعائيا

وقال عمر :

إذا خدرت رجلى أبوح بذكرها
ليذهب عن رجلى الخدور فيذهب

وقال أيضاً :

أهيم بها فى كل ممسى ومصبح
وأكثر دعواها إذا خدرت رجلى

---

(١) طوال الليالى

وهو من القصيدة التى سمعها جميل وشهد من أجلها لعمر بالسبق فى مخاطبة النساء ، والبيت أقرب إلى كلام الذين تعودوا محادثة النساء منه إلى كلام العاشق المقصور على معشوقة واحدة كذلك قال جميل :

وهما قالتا لو أن جميلا
عرض اليوم نظرة فرآنا
بينما ذاك منهما رأيانى
أعمل النص سيره الزفيانا

وهو أشبه بقول عمر وبفعله أيضاً وخلائقه حيث يقول :

بينما يذكرننى أبصرننى دون قيد الميل يعدو بى الأغر
قلن تعرفن الفتى قلن نعم قد عرفناه وهل يخفى القمر

وقد قيل إن عمر بن أبى ربيعة أنشد بثينة تلك الأبيات الثلاثة من كلام جميل فقالت : « إنه استملى منك فما أفلح ، وقد قيل : اربط الحمار مع الفرس فإن لم يتعلم من جريه تعلم من خلقه »

ومن قصائد جميل المشهورة رائية مطلعها :

---

(١) الزفن : الدفع الشديد والضرب بالقدم كما يفعل الراقص .

أغادٍ أخى من آل سلمى فمبكر
أبِنْ لى أغادٍ أنت أم متهجرِّ

وهو كمطلع عمر فى قصيدته الرائية التى هى أفضل شعره حيث قال :

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر
غداة غد أم رائح فمهجرِّ

والقصيدة كلها مما قيل إن جميلا سمعه من شعر عمر فأقر له وأثنى عليه

وفى الديوانين قطعة جيمية رويت لعمر ورويت لجميل منها هذه الأبيات :

قالت وعيش أخى وحرمة والدى
لأنبهن الحى إن لم تخرج
فخرجت خيفة قولها فتبسمت
فعلمت أن يمينها لم تحرج
فلثمت فاها آخذاً بقرونها
شرب النزيف ببرد ماء الحشرج

وهو كلام فيه من عبث المجون والمماحكة بين عمر

وصويحباته ، وليس فيه من جد العشق الذى كان بين جميل وبثينة ، ولا هو مما يوافق فخر جميل باقتحام المنازل والمناجزة لمن يترصدون له بالسيوف حول بيت بثينة ، ومنهم أبوها وأخوها كما جاء فى بعض الأخبار ، وتكرر فى سيرته على روايات مختلفات

فالذى نرجحه أن جميلا كان يحب أن يحكى عمر فى بعض ما قال ، ولكننا لا نرجح هذا الترجيح لنتخلص منه إلى تقديم عمر على جميل فى الصناعة الشعرية ، فهما فيها متكافئان يختلفان حيثما اختلفا فى المزاج والخليقة ولا يدعو ذلك إلى تفضيل أحدهما على الآخر فى صناعة النظم والتعبير ، وإنما نحمل اقتباس جميل من عمر على اقتداء البدوى بأهل الحضارة حيثما كان وكانوا ، ولا سيما إذا كان الحضرى شاعراً مقبول الشعر بين العلية والمترفين من أبناء المدينة وبناتها ، وهم أهل الطبقة التى تروع من البدو خاصة من كان قريباً إلى معيشة المدن غير منقطع لخشونة البادية ، على مثال جميل

* * *

فهما إذن فى الشعر ندان متكافئان ، جميل وعمر بن أبى ربيعة . وقد خرجا معاً بالغزل كله من ناحيتيه فى القرن الأول

للهجرة بأرض الحجاز بين حاضرة وبادية ، فلو زال شعر الغزل فى تلك البيئة وفى ذلك العصر جميعاً فلم يبق منه إلا ما نظم هذان الشاعران لأغنانا عن كل ما عداه فى الدلالة على حالة المرأة وحالة النساء كما ينعتها العاشق وزير النساء

وقد يبدو على شعر جميل إذا قوبل بشعر عمر أنه أفحل وأجزل وأبلغ فى الصناعة الشعرية وأجمل ، وذلك فيما يبدو لنا التباس بين فحولة المزاج وفحولة الشعر لا يثبت على التمحيص . فمن المألوف أن يظهر الجد فى شعر العاشق الذى ينسب بامرأة واحدة ويعيرها كل قلبه وهواه ولا يظهر مثل هذا الجد فى شعر الرجل الذى يقضى زمانه كله فى التحدث إلى النساء والتنقل بينهن ، وقلّ أن يسلم رجل كهذا من اصطناع التأنث ولو لم يكن مطبوعاً عليه ، فيسرى التأنث إلى كلامه وتتوارى منه قوة الفحولة التى تقترن بالجد حيث كان

ومع هذا لم يسلم جميل ممن يأخذ عليه التأنث فى نصف بيت هو قوله :

ألا أيها النُّوام ويحكموا هبوا
أسائلكم هل يقتل الرجل الحب

فالشطر الأول كما قال صالح بن حسان « أعرابى فى

شملة » والشطر الثانى « مخنث يتفكك من مخنثى العقيق ! »

ولكن نصف بيت أو مئات من الأبيات ليس فيها أعرابى واحد فى شملة ، ومعظم أبياتها هوادج تسفر عن حسان مدللات وأخدان حسان مدللات ! وذلك ديوان ابن ربيعة فى جملته على التحقيق .

ويشبه الالتباس بين فحولة المزاج وفحولة الشعر التباس آخر يعرض لكثير من المعجبين بنسيب جميل ، فهو عندهم إمام الشعراء لأنه إمام المحبين ، وقد سئل عنه نُصيب فقال : ذاك إمام المحبين ، وهل هدى الله عز وجل لما ترى إلا بجميل ؟

وجائزٌ أن يكون صدق الحب سبباً من أسباب جودة الشعر الذى يعبر عنه ، ولكن صدق الحب وجودة التعبير يظلان بعد هذا شيئين مختلفين ، فيصدق المحب ولا يجيد الشعر ، ويجيد الشاعر ولا يبلغ مبلغ ذلك المحب الصادق فى وجده وشوقه ووفائه . . . إن أحدهما لسبب للآخر ونعنى الحب والتعبير ، ولكنهما قد يفترقان كما يتفقان .

ولا يزال الحكم على عشق جميل وغزل جميل وشعر جميل يتطلب الحكم على ثلاثة أشياء لا على شىء واحد ، وإن لم يكن من الضرورى أن تتناقض هذه الأشياء .

فالذين قالوا إنه أشعر أهل الإسلام والجاهلية لأنه أصدق

المحبين يخطئون ، إذ ربما ثبت له أنه أصدق من أحب فى زمانه ولم يثبت له أنه أصدق من تغزل فضلا عمن هجا ومدح كما أراد بعض النقاد فى زمانه أن يقول .

وحقيقة الرأى الذى يدل عليه شعره فيما نعتقد أنه كان شاعراً يجمع بين البلاغة والسهولة ، ويرتقى فى الصناعة الشعرية مرتقى لا يعلو عليه شاعر من أبناء عصره ، وهم على الإجمال فطريون فى هذه الصناعة لهم مزايا الفطرة وعيوبها فى آن ، ولا سيما العيوب التى لها اتصال بكل صناعة من الصناعات .

ومن مزايا الفطرة الصدق والبساطة وقرب الأداء ، ومن عيوبها النقص والسذاجة وقلة الإتقان . ومن رأينا أن شعراء الجاهلية وشعراء القرن الأول للإسلام كانوا جميعاً أوفر الشعراء حظاً من مزايا الفطرة وعيوبها على السواء . فهم أصحاب معنى مستقيم ولغة قوية وشعور لا بهرج فيه ولا التواء، وهم إلى جانب هذا مبتدئون متعثرون فى صوغ الشعر لم يصلو بالقصيدة ولا بالأغنية إلى مبلغ الإتقان ووحدة المدلول ، ولعلهم لم يبلغوا فى ضرب من الشعر مبلغه من الإتقان غير الرجز ، لأنه مفكك بطبيعته لا يحتاج إلى تنسيق وانسجام .

وما زال الإتقان الصناعى يزداد والشعور الفطرى ينقص حتى تناهيا زيادة ونقصاً فى أواخر عهد العباسيين ، فأصبح

الإفراط فى الصناعة بهرجاً والإفراط فى ضعف الشعور الفطرى تكلفاً واصطناعاً ، وتلاقى هذا وذاك فى الغثاثة المزيفة التى لا هى صناعة جيدة ولا فطرة جيدة ، ولكنها مسخ للصناعة والفطرة لا خير فيه .

فالشعراء العباسيون مثلا أجود صناعة من الشعراء الأمويين والمخضرمين ، وأنأى منهم عن استقامة الفطرة وبساطة التعبير ، ولا استثناء لأحد من الأمويين والمخضرمين والجاهليين فى ضعف الصنعة الذى يأخذ كل منهم بنصيب منه ، حتى شعراء المعلقات .

وشأن جميل فى هذا شأن غيره من أبناء عصره وسابقيه : يأتى بالكلام السهل البسيط لأن معناه سهل بسيط ، ولأنه يملك القدرة الفنية التى يعمد بها إلى المعانى المركبة فتسلس له فإذا هى مجلوة فى ثوب من البساطة يخدع السامع حتى ليحسبه خلواً من كل تركيب .

وقلما تجاوز الأبيات فى القصيدة الواحدة واعتمد الإطالة إلا تعثر والتفت بمن يتحدث عنه بين الخطاب والغياب وضمير المفرد وضمير الجمع فى نفس واحد . كما قال :

فإن تبينى بلا جرم ولا ترة (١)
وتولعى بى ظلماً أى إيلاع

---

(١) ثار .

فقد يرى الله أنى قد أحبكم
حباً أقام جواه بين أضلاعى
لولا الذى أرتجى منه وآمله
لقد أشاع بموتى عندها ناعى

أو كما قال :

إلى الله أشكو لا إلى الناس حبها
ولا بد من شكوى حبيب يروّع
ألا تتقين الله فيمن قتلته
فأمسى إليكم خاشعاً يتضرع

وقد يخطىء فى قواعد اللغة أو يتجوز فى أبيات غير قليلة ، منها قوله فى قصيدة من أشهر قصائده :

فإن لم تكن « تقطع » قوى الود بيننا
ولم تنس ما أسلفت فى سالف الدهر
فسوف يرى منها اشتياق ولوعة
ببين وغرب من مدامعها يجرى

ومنها قوله :

ولو أن « داع » منك يدعو جنازتى
وكنت على أيدى الرجال حييت

وهو فى هذا وعمر بن أبى ربيعة وغيرهما من شعراء عصرهما سواء أو متقاربون

* * *

وفى حيز هذه القدرة الفنية يبدع غاية الإبداع الذى يتاح لشاعر قديم أو حديث ، فلا يقول شاعر فى البيت والبيتين أو الأبيات القلائل أبلغ من قوله فى تعذر نسيان الحبيب :

ولو تركت عقلى معى ما طلبتها
ولكن طلابيها لما فات من عقلى

أو قوله لمن يقدحن فى صاحبته ليحللن عنده فى محلها :

ولرب عارضة علينا وصلها
بالجد تخلطه بقول الهازل
فأجبتها بالرفق بعد تستر
حبى بثينة عن وصالك شاغلى
لو أن فى قلبى كقدر قلامة
فضلا وصلتك أو أتتك رسائلى
ويقلن إنك قد رضيت بباطل
منها فهل لك فى اعتزال الباطل
ولباطلٌ ممن أُحب حديثه
أشهى إلىَّ من البغيض الباذل

أو قوله فى حيرته بين حبه لغيرها وحب غيره من المحبين :

سلا كل ذى ود علمت مكانه
وأنت بها حتّى الممات موكّل
فما هكذا أحببت من كان قبلها
ولا هكذا فيما مضى كنت تفعل

أو قوله فى الفراق :

كأنى سُقيت السم يوم تحملوا
وجدّ بهم حاد وحان مسير
على أننى بالبرق من نحو أرضها
إذا قصرت عنه العيون بصير
وإنى إذا ما الريح يوماً تنسّمت
شآميةً عاد العظام فتور
ألا يا غراب البين لونك شاحب
وأنت بروعات الفراق جدير
فإن كان حقّاً ما تقول فأصبحت
همومك شتّى والجناح كسير
ودرت بأعداء حبيبك فيهُم
كما قد ترانى بالحبيب أدور

أو قوله فى تمنى الصلة الدائمة بصاحبته حيًّا وميتاً ثم سخطه على لجاجة الحب بعد هذا :

أعوذ بك اللهم أن تشحط النوى
ببثنة فى أدنى حياتى ولا حشرى
وجاور إذا ما مت بينى وبينها
فيا حبذا موتى إذا جاورت قبرى
عدمتك من حب ! أما منك راحة
وما بك عنى من توان ولا فتر ؟

ولهذه الأبيات الأخيرة لا نستغرب مبالغته التى تندر فى شعره وشعر أبناء عصره حيث يقول :

إذا ما دنت زدت اشتياقاً وإن نأت
جزعت لنأى الدار منها وللبعد
أبى القلب إلا حب بثنة لم يرد
سواها وحب القلب بثنة لا يجدى
تعلق روحى روحها قبل خلقنا
ومن بعد ما كنا نطافا وفى المهد
فزاد كما زدنا فأصبح ناميا
وليس إذا متنا بمنتقض العهد

ولكنه باق على كل حالة
وزائرنا فى ظلمة القبر واللحد

فى هذه المبالغة مسحة من شطحات ابن الفارض وأضرابه ، ولكن المبالغة هنا تتسلسل وتتدرج وتنمو على جذورها حتى تبلغ ذروتها ولا غرابة فيها ولا تناقض بين أعلاها وأدناها . فمن قال البيت الأول قال الأبيات التى تليه كما يصعد النفس مطيلا فيه حتى يستوفيه

إلا أن الذى يأباه الذوق والعقل أن تنسب إلى جميل أبيات كهذه الأبيات التى ضمت إلى ديوانه :

خليلى إن قالت بثينة ماله
أتانا بلا وعد ؟ فقولا لها : لها
أتى وهو مشغول لعظم الذى به
ومن بات طول الليل يرعى السها ، سها
بثينة تزرى بالغزالة فى الضحى
إذا برزت لم تبق يوماً بها بهـا
لها مقلة كحلاء نجلاء خلقة
كأن أباها الظبى أو أمها مها
دهتنى بود قاتل وهو متلفى
وكم قتلت بالود من ودها دها

فهذا كالانتقال من الشملة العربية إلى ثياب المرافع قبل أن تخلق المرافع بقرون ، ولو جاز أن يقول جميل مثل هذه الأبيات مرة لوجب أن تتكرر نظائرها فى قصائده هنا وهناك ، لأن المحسنات من هذا الطراز عادة تجر لا محالة إلى الإدمان

وقياساً على هذا كله ما جاوز الصدق الفطرى والبلاغة السهلة والجد فى وصف الشعور ، فهو منحول له وليس بالنسج الذى يندس بين لحمته وسداه

إنما الرجل ابن زمانه فى معناه وصناعته ، وله من الإمامة بين شعراء العشق فى ذلك الزمان مكان لم ينازع فيه ، لأن عيوبه أقل من عيوبهم ومزاياه أظهر من مزاياهم ، وشعره فى جملته يجمع خير ما قالوه

وهنا يحسن بنا أن نقيد «خير ما قالوه» بما قالوه فى النسيب دون غيره ، فالحق أنه لم يأت بطائل فى الهجاء ولو بالقياس إلى معاصريه ، أو لعل الذى نظم فى هذا الباب ورجح به على الشعراء فى رأى نقاد عصره قد ذهب به الزمن ولم يصل إلينا مع سائر شعره ، وهو ظن ضعيف

مزاجان

قدّمنا فى الفصل السابق أن شعر جميل إذا قوبل بشعر عمر يبدو أنه أفحل وأجزل ، وأنه أبلغ فى الصناعة وأجمل . ثم قلنا إن هذا فيما يبدو لنا « التباس بين فحولة المزاج وفحولة الشعر لا يثبت على التمحيص »

ومن الحسن أن نعرض ببعض الوصف والتمييز لمزاج الشاعر الذى تتعلق به هذه الفحولة الفنية . فجملة ما يقال فيه — بسياق هذه المقابلة — أنه كان يحتاج إلى البأس والسيف فى معيشته وعشقه ، فهو بدوى يعيش مع آله فى طريق تحميها الدولة وتكل حمايتها أحياناً إلى سكانها من أهل البادية ، لأنها تتوسط بين الحجاز ومصر والشام . فمن واجبه — إن لم يكن من طبعه — أن يحمل السيف ويحتز بالمنعة وصيانة الحوزة

وهو إلى هذا عاشق مشغوف بامرأة واحدة لا تغنيه عنها امرأة غيرها ، فلابد له منها وإن حيل بينه وبينها ولا غنى له عن المجازفة والتقحم بالقوة فى سبيلها

ولم نسمع من أخبار عمر بن أبى ربيعة أنه احتاج إلى القوة مرة واحدة . بل علمنا من أخباره أكثر من مرة أنه تعرض

لبعض الحسان وألحف عليهن بالتوسل والمطاردة ، فرددنه حتى أعيتهن الحيلة معه ، ثم ظهرن مع رجل من أوليائهن يتقلد السيف فتجاهلن عمر ، ومضى فى طريقه ، وقنع من الغنيمة بالذهاب . ثم تمثل المتمثلون :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له
وتتقى مربض المستأسد الضارى

ولا جرم أن يكون هذا شأن عمر وشأن حبه ، فقد كان من أهل حاضرة يعيش فيها الرجل حياته كلها ولا تلجئه ضرورة يوماً إلى تقلد سلاح ، وهو فى معظم ما يرتاده من صويحباته طالب جلسة ومحادثة إن تيسرت فهى فكاهة ساعة ثم تنقضى إلى نسيان أو تسجلها قصيدة أو قصيدتان ، وإن تعسرت فلا موضع للسيف فى هذا الميدان ، وغير هذه الحسناء كثيرات بين الحسان

أما جميل فكان السيف فخره وفخر آله من قبيلة أبيه أو قبيلة أمه ، ولم يفخر قط إلا تغنى بالمنعة وحماية الحرم ، والنساء . فمن قوله فى هذا المعنى :

نحن منعنا يوم أوْل نساءنا
ويوم أُفيّ ، والأسنة ترعف[1]

(١) تقطر دما

ويوم ركايا[١] ذى الجذاة ووقعة
ببتيان كانت بعض ما قد تسلّفوا[٢]
يحب الغوانى البيض ظل لوائنا
إذا ما أتانا الصارخ المتلهف

ومن قوله فى أخواله جذام :

جُذام سيوف الله فى كل موطن
إذا أزمت يوم اللّقاء أزام[٣]
هموا منعوا ما بين مصر فذى القرى
إلى الشام من حل به حرام

وتواترت الأنباء فى قصة عشقه باقتحامه وقلة مبالاته بأهل عشيقته المترصدين لقتله . وقيل فيما قيل من ذلك إنه استدعاها يوماً وعلم أهلها فتجمعوا لمفاجأته ، ثم جاءه من ينذره وينبئه بنبأ القوم فاستكبر الهرب ، وقال لمنذريه : « والله ما أرهبهم ، وإن فى كنانتى ثلاثين سهماً والله لا أخطأ كل سهم منها رجلا منهم . وهذا سيفى والله ما أنا به رعِش اليد ولا جبان الجنان »

وذكر الهيثم بن عَدِى فيما رواه صاحب الأغانى : « أن

(١) جمع ركية وهى البئر
(٢) ذو الجذاة وبتيان : موضعان
(٣) أزام : أى شدة

جميلا طال مقامه بالشام ثم قدم وبلغ بثينة خبره فراسلته مع بعض نساء الحى تذكر شوقها إليه ووجدها به وطلبها للحيلة فى لقائه وواعدته لموضع يلتقيان فيه ، فسار إليها وحدثها طويلا وأخبرها خبره بعدها . وقد كان أهلها رصدوها فلما فقدوها تبعها أبوها وأخوها حتى هجما عليهما ، فوثب جميل فانتضى سيفه وشد عليهما فاتقياه بالهرب ، وناشدته بثينة الله إلا انصرف ، وقالت له : إن أقمت فضحتنى ، ولعل الحى أن يلحقوك . فأبى وقال : أنا مقيم وامضى أنت وليصنعوا ما أحبوا . فلم تزل تناشده حتى انصرف »

وغير هاتين القصتين كثير يردد ما فيهما من المغامرة والتحدى وقلة المبالاة . وقد تصح هذه القصص جميعاً أو يصح بعضها دون سائرها أو لا تكون فيها قصة واحدة صحيحة . ولكن الحقيقة التى قصدنا إلى بيانها تبقى بعد ذلك قائمة فى مكانها ، وهى أن حب جميل يتطلب مزاجاً فيه الجد والفحولة ولو كان « دور تمثيل » على مسرح من مسارح الفنون ، فلو أننا تركنا الواقع جانباً وتخيلنا أن جميلا وعمر ممثلان فى رواية مسرحية يمثلان ما روى لنا من أخبارهما لما استطعنا أن نخرج جميلا إلى المسرح بغير سيفه ولا وجدنا من حاجة إلى السيف فى دور عمر وصويحباته

فالمزاج هنا حقيقة فنية وإن لم يكن بالحقيقة الطبيعية ،

ولا يبعد أن يكون جميل شجاعاً متقحماً كما جاء فى بعض أنبائه . إلا أنه على ما نعتقد كان مستطيعاً أن « يمثل دوره » فى مسرح الحياة بغير حاجة إلى شجاعة أكثر من الشجاعة الظاهرة التى يتلبس بها الممثل أو تتلبس هى به إلى حين

فقد كان يقتحم ويعلم أنه آمن ، وكان يبقى حيث لا حاجة به إلى البقاء بعد افتضاح الأمر وانطلاق صاحبته ، لأنه لا يخشى العاقبة إذا أدركه المتعقبون . إذ كان أهله أعز من أهل بثينة ، وكان طالبوه يضعفون عن حرب قبيلته ولا يقدرون على الدية إن رضى بها المطالبون بثأره، وهو نفسه قد ذكر ذلك فى بعض قصائده :

فليت رجالاً فيك قد نذروا دمى
وهمّوا بقتلى يا بثينُ لقونى

إذا ما رأونى طالعاً من ثنية
يقولون من هذا وقد عرفونى

يقولون لى أهلا وسهلا ومرحباً
ولو ظفروا بى خالياً قتلونى

وكيف ولا توفى دماؤهم دمى
ولا مالهم ذو ندهة[1] فيدونى

---

(١) الندهة : الكثرة من الماشية

فهو قد كان فى حاجة إلى الاقتحام ، ولكنه كان اقتحاماً سهلا عليه موافقاً لحاله وحال بثينة وأهلها . فاقتحم ما أمن وسلم ، وما كان الخطر من بثينة وأهل بثينة ، فلما تجاوز ذلك إلى الخطر من مطاردة السلطان وإهدار بأمر الوالى الذى يقدر عليه وعلى قبيلته رجع إلى الأناة وهرب إلى اليمن كما قيل

وليس يطلب من جميل ولا من عاشق فى موضعه أن يكافح السلطان بشجاعته وينهض للدولة ببأسه ، فمن الجائز مع هذا أن يكون شجاعاً وأن يترك دياره إلى اليمن إذا لم يكن له بد من زيارة بثينة فيقتل ، أو من معالجة السلو وهو قريب منها فلا يطيق .

إلا أنه لم تكن به حاجة إلى أكثر من الشجاعة التمثيلية فى دوره الحقيقى وفى روايته الواقعة ، وهذه الشجاعة التمثيلية كافية لاصطباغ شعره بصبغة الفحولة التى تظهر فيه ولا تظهر فى شعر ابن أبى ربيعة .

أما إذا أعرضنا عن البحث فى شجاعته لبيان هذا الفارق بينه وبين المتغزلين بالنساء عامة ، واعتمدنا أن نعرفها لنعرفه على حقيقته ونخلص إلى ناحية من نفسه قد تعين على فهمه وفهم عشقه وشعره ، فالذى يلوح لنا أنه كان شجاعاً بين قومه ككل بدوى يشجع فى حمى الجماعة وفى ذمار القبيلة .

فإذا حاربوا حارب ، وإذا اجترأ فإنما يجترئ بقلوب المئات والألوف من ورائه ، ولكنه لا يخلو من رقة تقعد به عن النضال العنيف والمعارك الدامية ، وفى بعض قوله ما يدل على ذلك حيث يقول :

يقولون جاهد يا جميل بغزوة
وأى جهاد غيرهن أريد
لكل حديث بينهن بشاشةٌ
وكل قتيل عندهن شهيد

أو حيث يقول :

يقولون صبٌّ بالغوانى موكل
وهل ذاك من فعل الرجال بديع
وقالوا رعيت اللهو والمال ضائع
فكالناس فيهم صالح ومضيع

فلا هو للجهاد فى غزوة ولا هو للجهاد فى طلب ثروة ، وليس كذلك الرجال الأقوياء الذين يحبون فلا يشغلهم حبهم عن الجهاد حيث تنفتح أمامهم أبواب الجهاد ، بل يكون حبهم مثيراً للعزيمة فيما طبعوا على اعتزامه من طلب المجد أو طلب العلو على الأقران بالمال والجاه ، ويبعد جداً أن يملك الهيام على أحد

أحد من هؤلاء عقله ووقته وهموم عيشه حتّى يفرغ له ويعيي بأمره ، ويرضى بالضياع كما رضى جميل .

وفى بعض أوصافه ما ينم على هذه الرقة الضعيفة فيه كما تنم عليها أخباره ودلالات شعره . فكان له مظهر يروع الناظر ، ولكنه كان عرضة للنوبات التى تعتريه فجأة ، وقد تدل على مرض فى القلب والأعصاب ، فذكر بعض أصحابه أنه كان جالساً معه يحدثه « إذ ثار وتربد وجهه ووثب نافراً مقشعر الشعر متغير اللون » حتّى أنكره صاحبه .

فهذه حالة غير سليمة ، ولعله مات بعلة من عللها قبل أن يمعن فى الشيخوخة ، فقد علمنا من شعره أنه عاش حتّى شاب ولا تزال بثينة فى سن العشق والجمال ، ثم مات وهى كذلك لا تزال فتية . فكانت وفاته ولا ريب فى كهولة دون الشيخوخة الفانية ، وكانت لعلة من علل الضعف التى لا تدل على بنيان وثيق ، وإن كان هذا لم يمنعه أن يجد فى حب بثينة أقوى الجد فى هذا المقام .

بعض أخباره

قابلنا بين جميل وعمر بن أبى ربيعة فى أكثر من خصلة واحدة من خصال الفن والحياة ، إذ الحقيقة أنهما متقابلان يوشك أن يتناظرا فى جميع الخصال : بداوة وحضارة ، وعكوف على محبوبة واحدة وتشبيب بجميع الحسان ، وعاطفة تغلب فيها الحاسة الإنسانية حيث كانت ، وعاطفة تغلب فيها حاسة الطبقة الاجتماعية التى منها الشاعر ، وكلا الشاعرين صادق فيما يمثله أو فيما يحكيه .

وإنهما ليتقابلان فى أخبارهما كما يتقابلان فى تلك الخصال التى أشرنا إليها .

فأخبار عمر مفهومة من ديوانه لأنه ينظم فحواها ولا يدع منها إلا بعض التفاصيل ، وأخبار جميل تحتاج إلى الرواة والناقلين ، لأن الذى نظمه منها فى ديوانه قليل الغناء فى باب الأخبار ، وإنما يدل على سيرته من طريق التفسير والتعقيب .

واختلاف العاطفتين يتأدى بنا إلى علة الفارق بينهما فى هذه الخصلة كما يتأدى بنا إلى علل الفوارق بينهما فى جميع الخصال .

فابن أبى ربيعة كان له فى كل يوم خبر وعلاقة ، وكان همه الأكبر أن يتحدث إلى الحسان ويتحدث عن الحسان . فلا عجب فى اتساع ديوانه للأخبار المنظومة التى هى متعته وهجيراه .

أما جميل فعاطفته خبر واحد ، إن لم ينظم فى الحنين والشكوى فلا نظم عنده ، ولا تأتيه الأخبار التى ينظم فيها إلا حين يطرأ طارئ يغيّر مجرى تلك الحياة الرتيبة ، كما قال حين خرج عليه أهل بثينة :

ولست بناس أهلها حين أقبلوا
وجالوا علينا بالسيوف وطوّفوا
وقالوا جميل بات فى الحى عندها
وقد جردوا أسيافهم ثم وقّفوا

أو كما قال حين وقف متذكراً على الأطلال :

بينما هن بالأراك معا إذ بدا راكب على جمله
فتناظرْن ثم قلن لها أكرميه حييت فى نزله

ولا غنى مع شعره عن نتف من أخباره التى تناقلها الرواة ، وهى مما يزكيه شعره ويثبته فى الجملة وإن عرضت له الزيادة والاختراع فى التفصيل ، وعلى هذا النحو هذه النخبة التالية

من أخباره الكثيرة التى توخينا فيها الدلالة عليه ، وتجنبنا التكرار فيما يشبه ما اخترناه .

* * *

« بين نظيرين »

لقى عمر بن أبى ربيعة جميلا فى طريقه إلى الشام فاستنشده من شعره فأسمعه من قوله :

خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى

ثم قال له : أنشدنى أنت يا أبا الخطاب ، فأسمعه قصيدته العينية التى أولها :

ألم تسأل الأطلال والمتربعا ببطن حُليّات دوارس بلقعا

فلما بلغ إلى قوله :

فلما تواقفنا وسلمت أشرقت وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تبالهن بالعرفان لما عرفننى وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا[1]
وقرّبن أسباب الهوى لمتيم يقيس ذراعاً كلما قسن أصبعا

(١) تعب وأسرع

فصاح جميل واستخذى وقال : ألا إن النسيب أُخذ من هذا ، وما أنشد بعد ذلك حرفاً

فقال له عمر : اذهب بنا إلى بثينة حتى نسلم عليها . فامتنع جميل واعتذر بإهدار السلطان دمه إن وجدوه عندها ، وأشار له إلى أبياتها . فتقدم عمر حتى وقف على الأبيات وتأنس حتى كلّم ، فقال : يا جارية ! أنا عمر بن أبي ربيعة فأعلمى بثينة مكانى ، فخرجت إليه بثينة فى مباذلها وهى تقول : والله يا عمر لا أكون من نسائك اللائى يزعمن أن قتلهن الوجد بك ، فانكسر عمر ، ونظر فإذا امرأة أدماء طوالة

« بين الأستاذ وتلميذه »

والتقى جميل وكثير فتذاكرا النسيب ، فقال كثير : يا جميل ! أترى بثينة لم تسمع بقولك :

يقيك جميل كل سوء أماله
لديك حديث أو إليك رسول ؟
وقد قلت فى حبى لكم وصبابتى
محاسن شعر ذكرهن يطول
فإن لم يكن قولى رضاك فعلمى
نسيم الصبا يا بثن كيف أقول

فما غاب عن عينى خيالك لحظة
ولا زال عنها والخيال يزولِ

فقال جميل : أترى عزة يا كثير لم تسمع بقولك :

يقول العدا يا عَزُّ قد حال دونكم
شجاع على ظهر الطريق مصمم
فقلت لها والله لو كان دونكم
جهنم ما راعت فؤادى جهنم
وكيف يروع القلب يا عز رائع
ووجهك فى الظلماء للسفر معلم[1]
وما ظلمتك النفس يا عز فى الهوى
فلا تنقمى حبى فما فيه منقم

ثم بكيا قطعة من الليل وانصرفا . . .

« جلتها أو لم تجلها ؟ »

كان أهل بثينة يأتمنون عليها عجوزاً منهم يقال لها أم منظور ، فجاءها جميل يسألها أن تريه بثينة . فقالت : لا والله . لا أفعل وقد ائتمنونى عليها . فتوعدها ليضرنها . . . قالت :

---

(١) السفر : المسافرون ، والمعلم ما يهتدون به من علامات الطريق

المضرة والله فى أن أريكها . فخرج من عندها وهو يقول :

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت
بالحِجْر يوم جلتها أم منظور
ولا انسلابتها خُرساً جبائرها[1]
إلىّ من ساقط الأرواق مستور

فما كان إلا قليل حتى انتهى إليهم هذان البيتان فاتهموا أم منظور وهى تقسم لهم فلا يصدقونها !

وقيل فى رواية أخرى إن مصعب بن الزبير أنشد هذان البيتان فقال : لوددت أنى عرفت كيف جلتها ، فأخبروه أن أم منظور هذه حية ، فكتب فى حملها إليه مكرمة ، وسألها عن الجلوة فقالت : ألبستها قلادة بلح ومخنقة بلح واسطتها تفاحة ، وضفرت شعرها وجعلت فى فرقها شيئاً من الخلوق — أى الطيب — ومر بنا جميل راكباً ناقته فجعل ينظر إليها بمؤخر عينيه ويلتفت إليها حتى غاب عنا . فأقسم عليها مصعب لتجلون امرأته عائشة بنت طلحة مثل ما جلت بثينة ، ففعلت . وركب مصعب ناقته وأقبل عليها وجعل ينظر إلى عائشة بمؤخر عينيه ويسير حتى غاب عنهما . . . ثم رجع

---

(١) الجبائر : الأساور ، والأرواق جمع وروق هو الفسطاط

« يتهمها ولا يُتهم بأَمة »

أشاع أهل بثينة أن جميلا إنما يتبع أمة لهم ، ليدافعوا عنهم الوصمة ويصموه ، فواعد جميل بثينة حتى لقيها ببرقاء ذى ضال وتحادثا ليلا طويلا حتى أسحرا ، فاقترح عليها أن ترقد فقالت : ما شئت ! على أنى خائفة أن نكون قد أصبحنا ، فوسدها جانبه ثم اضطجعا ونامت ، وانسل مستوياً على راحلته ، وأصبحت فى مضجعها فرآها الحى راقدة عند مناخ راحلة جميل ، وفى ذلك يقول :

فمن يك فى حبى بثينة يمترى   فبرقاء ذى ضال علىّ شهيد

« لغة واحدة »

قال كثير : لقينى جميل مرة فسألنى : من أين أقبلت ؟
قلت : من عند أبى الحبيبة — أعنى بثينة
فسألنى : وإلى أين تمضى ؟
قلت : إلى الحبيبة — أعنى عزة

فقال : لابد أن ترجع عودك على بدئك فتستجد لى موعداً من بثينة .

فاستجبيت أن أرجع وعهدى بها الساعة . وألح قائلا : لابد من ذلك . فسألته : متى عهدك ببثينة ؟ فقال : فى أول الصيف وقد وقعت سحابة بأسفل وادى الدوم ، فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها . فلما أبصرتنى أنكرتنى فضربت بيديها إلى ثوب فى الماء فالتحفت به ، وعرفتنى الجارية فأعادت الثوب فى الماء ، وتحدثنا حتى غابت الشمس ، ثم سألتها الموعد فأنبأتنى أن أهلها سائرون ، ولم أجد أحداً آمنه فأرسله إليها

قال كثير : فاقترحت عليه أن آتى الحى فأتمثل بأبيات من شعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوة بها . فوافقنى ، وخرجت حتى أنخت بالقوم ، فسألنى أبوها : ما ردك ؟ قلت : ثلاثة أبيات عرضت لى فأحببت أن أعرضها عليك ، وأنشدته وبثينة تسمع :

فقلت لها يا عز أرسل صاحبى
إليك رسـولا والموكل مرسل

بأن تجعلى بينى وبينك مـوعداً
وأن تأمرينى ما الذى فيـه أفعل

وآخر عهدى منك يوم لقيتــنى
بأسفل وادى الدوم والثوب يُغسل

فضربت بثينة جانب خدرها وقالت اخسأ . واخسأ . فقال أبوها : مَهْيَم[١] يا بثينة ! . . قالت : كلب يأتينا إذا نوم الناس من وراء الرابية . ثم صاحت بالجارية أبغينا من الدومات حطباً لنذبح لكثير شاة ونشويها له !

فقلت : أنا أعجل من ذلك ، ورحت إلى جميل فأخبرته ، فعلم أن الموعد الدومات ، وخرجنا حتى أتيناها ، ثم جاءت بثينة مع بنات خالتها الثلاث ، فما برحنا حتى برق الصبح ، فما رأيت مجلساً قط أحسن من ذلك ، ولا رأيت مثل علم أحدهما بضمير الآخر .

« خداج سهل »

سعت أمة لبثينة بها إلى أبيها وأخيها ، وقالت لهما : إن جميلا عندها الليلة !

---

(١) مهيم كلمة يمانية معناها : ما خطبك ؟ وماذا بك ؟

فأتياها مشتملين على سيفين ، فرأياه جالساً حجرةً[1] منها يحدثها ويشكو إليها بثه . ثم قال لها : يا بثينة ؛ أرأيت ودى إياك وشغفى بك ألا تجزينيه ؟

قالت : بماذا ؟

قال : بما يكون بين المحبين .

فأجابته مغضبة : يا جميل. أهذا تبغى؟ والله لقدكنت عندى بعيداً منه ، ولئن عاودت تعريضاً بريبة لا رأيت وجهى أبداً .

فضحك وقال : والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك فيه ؛ ولو علمت أنك تجيبينى إليه لعلمت أنك تجيبين غيرى ، ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفى هذا ما استمسك فى يدى ، ولو أطاعتنى نفسى لهجرتك هجرة الأبد ، أو ما سمعت قولى :

وإنى لأرضى من بثينة بالـــذى
لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا ، وبأن لا أستطيع ، وبالمنى
وبالأمل المرجوِّ قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى
أواخره لا نلتـــقى وأوائلـــه

---

(١) أى ناحية منها .

فقال أبوها لأخيها : قم بنا . فما ينبغى بعد اليوم أن نمنع هذا الرجل من لقائها .

« سكرة وصحوة »

رصد جميل بثينة فى نجعة لأهلها ، حتى إذا صادف منها خلوة فى ليلة ظلماء ذات غيم وريح ورعد ، سكر ودنا منها وحذفها بحصاة فأصابت بعض أترابها . ففزعت وقالت : « والله ما حذفنى فى هذا الوقت بحصاة إلا الجن ! » وفطنت بثينة فصرفتها ناحية من منزلها ، وبقيت مع بثينة أم الجسير أختها وأم منظور. فقامت إلى جميل فأدخلته الخباء معها وتحدثا طويلا ، ثم اضطجع واضطجعت إلى جنبه فذهب النوم بهما حتى أصبحا

وجاءها غلام زوجها بصبوح من اللبن بعث به إليها ، فرآها نائمة مع جميل . فمضى لوجهه حتى خبّر سيده

ورأته ليلى أخت بثينة وكانت قد عرفت خبرها وخبر جميل تلك الليلة ، فاستوقفته كأنها تسأله عن حاله ، وبعثت بجارية لهب تحذر صاحبتها ، فجاءت الجارية فنبهتهما ، وصاحت بثينة بجميل وقد تبينت الصبح : نفسك ! نفسك ،

وهو غير مكترث لتخويفها يتمثل لها بقوله :

لعمرك ما خوفتنى من مخافــة
بثين ولا حذرتنى موضع الحــذر
فأقسم لا يُلفَى لى اليوم غــرةٌ
وفى الكف منى صارم قاطع ذكر

فأقسمت عليه أن يلقى نفسه تحت متاع البيت ، وأفهمته أنها إنما تسأله ذلك خوفاً على نفسها من الفضيحة لا خوفاً عليه .

ففعل كارهاً ، ونامت هى كما كانت وإلى جانبها أم الجسير . ثم أقبل زوجها ومعه أبوها وأخوها يأخذ بأيديهما ولا يشك فى أنه سيطلعهما على ريبة كما أنبأه غلامه . فلما كشفوا الثوب إذا أم الجسير حيث كانوا ينظرون جميلا ! فخجل الزوج ، وصاحت أختها ليلى : قبحكما الله ! أفى كل يوم تفضحان فتاتكما ويلقاكما هذا الأعور —تعنى زوج بثينة — بكل قبيح ؟

قال راوى القصة : وأقام جميل عند بثينة حتى أجنه الليل ثم ودعها ، وانقطعا عن اللقاء إلى أن نسيت القصة !

« بين سلطانين »

كان عمر بن ربعى بن دجاجة والياً على بلاد عذرة . فشكا إليه أهل بثينة جميلا وقالوا : إنه يهجوهم ويغشى بيوتهم وينسب بنسائهم ، فأباحهم دمه إن وجدوه عندهم ، ونجا جميل بنفسه إلى اليمن فلم يزل بها حتى عزل ذلك الوالى وانتجع بنو عذرة ناحية الشام فارتحل إليهم

« بثينة تنقد »

لقى جميل بثينة بعد تهاجر طال بينهما ، فتعاتبا ملياً ثم قالت بثينة : ويحك يا جميل ! أتزعم أنك تهوانى وأنت الذى تقول :

رمى الله فى عينى بثينة بالقذى
وفى الغر من أنيـــابها بالقوادح

فأطرق طويلا يبكى . ثم قال : بل أنا القائل :

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى   بثينة لا يخفى على كلامها

فقالت له : ويحك ! ! ما حملك على هذا المنى ! أو ليس فى سعة العافية ما كفانا جميعاً ؟ !

« خاتمة هوى »

روى أيوب بن عباية قال :

« خرجت من تيماء فى أغباش السحر ، فرأيت عجوزاً على أتان ، فتكلمت فإذا أعرابية فصيحة . فقلت : ممن أنت ؟ قالت : عذرية

فأجريت ذكر جميل وبثينة فقالت : والله إنا لعلى ماء لنا بالحباب وقد تنكبنا الجادة [1] بجيوش كانت تأتينا من قبل الشام تريد الحجاز ، وقد خرج رجالنا لسفر وخلفوا معنا أحداثاً ، فانحدروا ذات عشية إلى صرم قريب منا يتحدثون إلى جوار منهم ، فلم يبق غيرى وغير بثينة ، إذ انحدر علينا منحدر من هضبة تلقاءنا . فسلم ونحن مستوحشون وجلون ،

---

(١) الجادة : مستوى الطريق ، والصرم الجماعة القليلة من الناس

فتأملته ورددت السلام فإذا جميل !

قلت : أجميل !

قال : أى والله ؛

وإذا به لا يتماسك جوعاً . فقمت إلى قعب لنا فيه أقط [١] مطحون ، وإلى عُكة [٢] فيها سمن ورُبّ [٣] فعصرتها على الأقط ثم أدنيتها منه وقلت : أصب من هذا . فأصاب منه ، وقمت إلى سقاء فيه لبن فصببت عليه ماء بارداً فشرب منه وتراجعت نفسه

فقلت له : لقد بلغت ولقيت شراً فما أمرك ؟

قال : أنا والله فى هذه الهضبة التى ترين منذ ثلاث ما أريمها أنتظر أن أرى فرصة . فلما رأيت منحدر فتيانكم أتيتكم لأودعكم وأنا عامد إلى مصر . فتحدثنا ساعة ثم ودعنا وشخص ، فلم تطل غيبته أن جاءنا نعيه ، فزعموا أنه قال حين حضرته الوفاة :

صرح النعى وما كنى بجميل
وثوى بمصر ثواء غير قُفول

---

(١) الأقط اللبن الجاف (٢) العكة الزق الصغير

(٣) الرب ما يطبخ من التمر

ولقد يجر الذيل فى وادى القـــرى
نشوان بين مـــزارع ونخيـــل
قومى بثينة فاندبى بعـــويل
وابكى خليلك دون كل خليـــل

وتحدث من شهد موت جميل بمصر أن جميلا دعاه فقال : هل لك فى أن أعطيك كل ما أخلّفه على أن تفعل شيئاً أعهده إليك ! . . . إذا أنا مت فخذ حلتى هذه التى فى عيبتى فاعزلها جانباً ثم كل شىء سواها لك ، وارحل إلى رهط بنى الأحب من عذرة ، فإذا صرت إليهم فارتحل ناقتى هذه واركبها ، ثم البس حلتى هذه واشققها ، ثم اعل على شرف وصح بهذه الأبيات :

صرح النعى وما كنى بجميـــل
وثوى بمصر ثواء غـــير قفول

إلى آخر الأبيات الثلاثة المتقدمة .

قال الرجل : فلما واريته أتيت رهط بثينة ففعلت ما أمرنى به جميل ، فما استتممت الأبيات حتى برزت إلى امرأة يتبعها نسوة قد فرعتهن طولا وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برز فى دُجـُنة وهى تتعثر فى مرطها حتى أتتنى فقالت : يا هذا !

والله لئن كنت صادقاً لقد قتلتني ، ولئن كنت كاذباً لقد فضحتني !

قلت : والله ما أنا إلا صادق ، وأخرجت حلته . فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها ، واجتمع نساء الحي يبكين معها ويندبنه حتى صعقت فمكثت مغشياً عليها ساعة ، ثم قامت وهي تقول :

وإن سلوّي عن جميل لساعةٌ
من الدهرِ لا حانت ولا حان حينها
سواءٌ علينا يا جميلُ بن معمر
إذا مت بأساء الحياة ولينها

مختارات من شعره

« دعاء »

فيا رب حببنى إليها وأعطنى الـ
مودة منها ، أنت تعطى وتمنع
وإلا فصبرنى وإن كنت كارهاً
فإنى بهـا يا ذا المعارج مولع

... ...

تمتعت منها يوم بانوا بنظـرة
وهل عاشق من نظـرة يتمتع ؟
كفى حزنـاً للمرء ما عاش أنه
ببين حبيب لا يـزال يروع

« لذة الظلم ! »

رد الماء ما جاءت بصفو ذنائبه[١]
ودعه إذا خيضت بطرق مشاربه

(١) جمع ذنوب وهى الدلو لها ذنب

أعاتب من يحلو لدى عتــابه
وأترك من لا أشتهى وأجانبــه
ومن لذة الدنيا وإن كنت ظالماً
عناقك مظلوماً وأنت تعاتبــه

« الميت المبعوث »

وما بكت النســاء على قتيل
بأشرف من قتيــل الغانيــات
فلما مات من طرب وسكر
رددن حيــاته بالمسمعــات
فقام يجــر عطفيــه خُماراً
وكان قريب عهــد بالممات

« الزمن المحابى »

أما كنت أبصرتنى مــرة
ليالى نحــن بذى جوهــر
وإذا أنا أغيد غض الشبــا
ب أجرّ الرداء مــع المئزر

وإذا لمّى كجناح الغرا
ب ترجل بالمسك والعنبر
فغيّر ذلك ما تعلمين
تغيّر ذا الزمن المنكر
وأنت كلؤلؤة المرزُبان
بماء شبابك لم تعصرى
قريبان مربعنا واحدٌ
فكيف كبرت ولم تكبرى[1]

« داء وطب »

ارحمينى فقد بليت فحسبى
بعض ذا الداء يا بثينة ، حسبى
لا منى فيك يا بثينة صحبى
لا تلوموا ، فالحب قرّح قلبى
زعم الناس أنّ دائى طبّى
أنت والله يا بثينة طبى !

(١) المرزبان الرئيس عند الفرس ، وترجيل اللمة تسريحها

« كدر ومطروق ! »

وإنى لأستحيي من الناس أن أُرى
رديفاً لوصل أو علىّ رديف
وأشرب رنقاً منك بعد مـــودة
وأرضى بوصل منك وهو ضعيف
وإنى للماء المخـــالط للقـــذى
إذا كثرت ورّاده لعيـــوف

« من هى ؟ »

قناة من المران ما فوق حقـــوها
وما تحته منهـــا نقا يتقصف
لها مقلتا ريم وجيـــد جداية
وكشح كطى السابرية أهيف[1]

(١) المران شجر تتخذ منه الرماح ، والحقو الخصر ، والنقا مجتمع الرمل ، والجداية : الغزال ، والسابرى الحرير

« وفاء الله ! »

... ...

فما وجد العذرى عـــروة إذ قضى
كوجدى ولا من كان قبلى ولا بعدى
على أن من قد مات صادف راحة
وما لفؤادى من رواح ولا رشـــد
يكاد فضيض الماء يخدش جلـــدها
إذا اغتسلت بالماء من رقة الجلـــد
وإنى لمشتـــاق إلى ريح جيبهـــا
كما اشتاق إدريس إلى جنة الخلد
لقد لامنى فيهـــا أخ ذو قرابـــة
حبيب إليه فى ملامته رشـــدى
وقال أفق ، حتى متى أنت هائم
ببثنة فيها قد تعيد وقد تبـــدى
فقلت له فيها قضى الله ما تـــرى
علىّ ، وهل فيما قضى الله من رد

فإن كان رشــــداً حبها أو غواية
فقد كان ما قد كان منى على عمد
لقد لج ميثاق من الله بيننـــا
وليس لمن لم يوف لله من عهــــد
فلا وأبيها الخير ما خنت عهدهـــا
ولا لى علم بالذى فعلت بعدى
وما زادها الواشــــون إلا كرامة
علىّ ، وما زالت مودّتها عندى
أفى الناس أمثالى أحبوا فحالهم
كحالى أم أحببت من بينهم وحدى
وهل هكذا يلقى المحبــــون مثل ما
لقيت بها أم لم يجد أحدٌ وجدى

« محب أكول »

ويعجبنى من جعفر أن جعفــــراً
ملحٌّ على قرص ويبكى على جمل
فلو كنت عذرىّ العلاقة لم تـــكن
بطيناً وأنساك الهوى كثرة الأكل

« صرخة »

فإن يحجبوها أو يحل دون وصلها
مقالة واش أو وعيـــد أمير
فلم يحجبوا عينيّ عن دائم البــكا
ولن يملـــكوا ما قد يجن ضميرى
إلى الله أشكو ما ألاقى من الهوى
ومن حُـــرَق تعتـــادنى وزفير
ومن كرب للحب فى باطن الحشـــا
وليل طويل الحزن غير قصير
سأبكى على نفسى بعين غزيرة
بكاء حزين فى الوثاق أسير
وكنا جميعاً قبل أن يظهر النوى
بأنعم حالى غبطـــة وسرور
فما برح الواشون حتى بدت لنـــا
بطون الهـــوى مقلوبة لظهور
لقد كنت صعب النفس لو دام وصلنا
ولـــكنما الدنيا متـــاع غرور

لو أن أمرأً أخفى الهوى عن ضميره
لمت ولم يعلم بذاك ضميرى

« عند ذلك »

هى البدر حسناً والنساء كواكب
وشتان ما بين الكواكب والبدر
لقد فضلت حسنا على الناس مثلما
على ألف شهر فضلت ليلة القدر
عليها سلام الله من ذى صبابة
وصب معنى بالوساوس والفكر
أيبكى حمام الأيك من فقد إلفه
وأصبر ؟ مالى عن بثينة من صبر
ومالى لا أبكى وفى الأيك نائح
وقد فارقتنى شختة الكشح والخصر [١]
يقولون مسحور يجن بذكرها
وأقسم ما بى من جنون ولا سحر

---

(١) شختة : دقيقة ، والكشح ما بين السرة و وسط الظهر

ذكرت مقامى ليلة البـــان قابضاً

على كف حوراء المدامع كالبدر

فكدت ولم أملك إليها صبـــابة

أهيم وفاض الدمع منى على نحرى

تجود علينـــا بالحديث وتـــارة

تجود علينا بالرُّضاب من الثغر

فياليت ربى قد قضى ذاك مرة

فيعلم ربى عنـــد ذلك ما أمارى

« وعد مطول »

يهواك ما عشت الفؤاد فإن أمت

يتبع صداى صداك بين الأقبر

إنى إليك بمـــا وعدت لناظرٌ

نظر الفقير إلى الغنى المـــكثر

تقضى الديون وليس ينجز موعـــداً

هذا الغريم لنا ، وليس بمعسر

ما أنت والوعد الذى تعديننى

إلا كبرق سحابة لم تمطـــر

« ليت »

لقد ذرفت عيني وطال سفوحهـــا
وأصبح من نفسي سقيماً صحيحها
ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن نمت
يجاور في الموتى ضريحي ضريحها
فما أنا في طول الحياة براغب
إذا قيل قد سُوّى عليها صفيحهـــا
أظل نهاري مستهامـــاً ويلتقي
مع الليل روحي في المنام وروحها
فهل لى في كتما حُبّي راحة وهل تنفعني بوحة لو أبوحها

« جهاد »

إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي
من الحب قالت ثابت ويزيد
وإن قلت ردى بعض عقلي أعش به
تولّت وقالت ذاك منك بعيـــد

فلا أنا مردود بما جئت طالباً
ولا حبها فيما يبيد يبيد

. . . .

ومن يُعط فى الدنيا قريناً كمثلها
فذلك فى عيش الحياة رشيد
يموت الهوى منى إذا ما لقيتها
ويحيا إذا فارقتها فيعود
يقولون جاهد يا جميل بغزوة
وأى جهاد غيرهن أريد ؟
لكل حديث بينهن بشاشة
وكل قتيل عندهن شهيد

« فى الصلاة »

أرى كل معشوقين غيرى وغيرها ... يلذان فى الدنيان ويغتبطان
وأمشى وتمشى فى البلاد كأننا ... أسيران للأعداء مرتهنان
أصلى فأبكى فى الصلاة لذكرها ... لىَ الويل مما يكتب الملكان
ضمنت لها ألا أهيم بغيرها ... وقد وثقت منى بغير ضمان
ألا يا عباد الله قوموا لتسمعوا ... خصومة معشوقين يختصمان

وفى كل عام يستجدان مرة … عتاباً وهجراً ثم يصطلحان
يعيشان فى الدنيا غريبين أينما … أقاما ، وفى الأعوام يلتقيان
وما صاديات حُمن يوماً وليلة … على الماء يغشين العصى حوانى
لواغب لا يصدرن عنه لوجهة … ولا هـنّ من بردالحياض دوان
يرين حباب الماء والموت دونه … فهن لأصوات السقاة روانى
بأكثر منى غلة وصبـــابة … إليك ، ولـــكن العدو عدانى

« اليمين وما ملكت »

ولو أرسلت يوماً بثينة تبتغى … يمينى ولو عزت علىّ يمينى
لأعطيتّها ما جاء يبغى رسولها … وقلت لها بعد اليمين سلينى
سلينى مالى يا بثين فإنمـــا … يُبيّن عند المال كل ضنين
فمالك لما خبر النـــاس أننى … غدرت بظهر الغيب لم تسلينى
لأُبلىَ عذراً أو أجىء بشاهد … من الناس عدل أنهم ظلمونى
لى الله من لا ينفع الوعد عنده … ومن حبله إن مُدّ غير متين
ومن هو ذو وجهين ليس بدائم … على العهد حلاف بكل يمين
ولست وإن عزت علىّ بقائل … لها بعد صرم يا بثين صلينى

« نعى نفسه »

صرح النعىّ وما كنى بجميــــل
وثوى بمصر ثواءُ غير قفــول
ولقد يجر الذيل فى وادى القــرى
نشوان بين مزارع ونخيــــل
بكر النعى بفــارس ذى همــة
بطل إذا حم اللقــاء مذيل[1]
قومى بثينــة واندبى بعــويل
وابكى خليلك دون كل خليل

أبيات مفردة

فى معان مختلفة

« لو . . . ولا »

وددت ولا تغنى الودادة أنهــا
نصيبى من الدنيا وأنى نصيبهــا

(١) المذيل من أهان ماله ، أو طال ذيله أو درعه

« بدل مطلوب »

أفى كل يوم أنت محدث صبوة
تموت لها ؟ بُدّلت غيرك من قلب

« الصدق أنجح »

حلفت لكيما تعلمينى صـــادقا
وللصدق خير فى الأمور وأنجح

« شتان المرادان »

أريد صلاحها وتريد قتـــلى
وشتى بين قتـــلى والصـــلاح

« داء مزمن »

علقت الهوى منها وليداً فلم يزل
إلى اليوم ينمى حبهـــا ويزيد

« لا قرار »

إذا ما دنت زدت اشتياقاً وإن نأت
جزعت لنأى الدار منها وللبعـــد

« زهد ! »

رفعت عن الدنيا المنى غير ودها
فما أسأل الدنيـــا ولا أستزيدها

« تفويض »

فمريني أطعـــك فى كل أمـــر
أنت والله أوجـــه الناس عنـــدى

« دعوة أم دعاء »

وعاذلين ألحـــوا فى محبتهـــا
يا ليتهم وجدوا مثل الذى أجـــد

« عذر أو ظلم »

لو تعلمين بمــا أجن من الهوى
لعذرت أو لظلمت إن لم تعذرى

« خبر مكتوم ! »

أموت وألقى الله يا بثن لم أبــح
بسرك والمستخــبرون كثــير

« موعد فى السماء »

أقلب طرفى فى السماء لعلــه
يوافق طرفى طرفــكم حين ينظر

« ليس كمثلها ! »

لا حسنها حسن ولا كدلالهــا
دل ولا كوقــارها توقــير

« جفون قصيرة »

كأن المحب قصير الجفـــو
ن لطول الليـــالى ، ولم تقصر

« الموطن الغرامى »

فإن يك جثمانى بأرض بعيـــدة
فإن فؤادى عنـــدك الدهر أجمع

« قليل نافع »

إن القليل كثير منك ينفعـــنى
وما سواه كثير غـــير نفـــاع

« حجته لها »

وبين الصفا والمروتين ذكرتـــكم
بمختلف ، والناس ساع وموجف

« جلد جاموس »

وما يبتغى منى عداة تعاقـــدوا
ومن جلد جاموس سمين مطـــرق

« ماذا يقولون ؟ »

وماذا عسى الواشون أن يتحـــدثوا
سوى أن يقولوا إننى لك عاشـــق

« غير خوار »

فلو كنت خواراً لقد باح مضمرى
ولـــكننى صعب القنـــاة عريق

« علامة »

فإن وجدت نعل بأرض مضلـــة
من الأرض يوماً فاعلمى أنها نعلى

« ثقل » محبوب

وتثاقلت لمـــا رأت كلفى بهـــا
أحبب إلىّ بذاك من متثاقل !

« التحول حزم ! »

وإن التى أحببت قد حيل بينها
فـــكن حازماً ، والحازم المتحول

« لعلها »

وقالوا نراها يا جميـــل تبـــدلت
وغيرها الواشى فقلت لعلهـــا

« آلة الصيد »

ولكنها يظفـــرن بالصيد كلمـــا
جلون الثنايا الغر ، والأعين النجلا

« صلح على انفراد »

فإن تك حرب بين قومى وقومها
فإنى لهـــا فى كل نائبة سلم

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر

دار المعارف بمصر

تقدم لجيل ناهض ، مفكر ، متحرر ، واع لقيمة تراث قومه :

مجموعة « نوابغ الفكر العربى »

هذه المجموعة تعرض لنا الفكر العربى على مر العصور ، وفي كل أرض عربية ، وتجلو لنا هذا الفكر سواء أكان فى صورة الفلسفة ، أم فى خيال الشعر ، أم فى ثوب الأدب ، أم فى رواق الحكمة ، أم فى ميدان اللغة ، أم فى معرض التاريخ ، ويتحدث عن كل نابغة فى الفكر العربى مختص بالموضوع خبير فيه تزخر بهم أقطار العروبة .

صدر من هذه المجموعة ٣٥ كتاباً ثمن الكتاب بين ١٥ ، ٢٠ قرشاً

أحدث ما صدر فى هذه المجموعة

- ابن رشيق القيروانى – للأستاذ عبد الرؤوف مخلوف (الكتاب رقم ٣٢)
- القاضى الجرجانى – للدكتور أحمد أحمد بدوى (
- حسان بن ثابت – للأستاذ محمد إبراهيم جمعة (
- قاسم أمين – للسيدة وداد سكاكينى (



٥ قروش ج.ع.م.	١٠٠ مليم فى ليبيا	٥٠
٦٠ ق . ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠
٧٥ ق . س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	